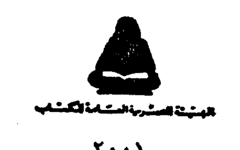
من أدب الرحلة

تنويعات ..
على لحن السندباد

د. حسن فتح الباب



٢٠٠١

الغلاف والاخراج الفنى :

صبرى عبد الواحـــد

مقـــدمة

بيت شوقي المأثور : قد يهون العمر الا ســـاعة ، وتهون الأرض الا موضعا ، ليس تعبيرا عقريا عن عاطفة الحب فحسب ، وانما هو أيضا تصوير موجز نافذ للبعد المزدوج لمعنى الانتماء • فقد يكون الانتماء للزمان كما قد يكون للمكان • وهذه الصفحات التى أقدمها للقارىء كتبتها من وحى رحلات فى أزمنة تختلف فى تاريخها وأمكنة تتباين فى جغرافيتها ، غير أنه يجمعها معا وقعها العميق فى نفسى وأثرها فى مسيرتى الحياتية والابداعية التى واكبت مسيرة وطن ورحلته فى التاريخ الحديث •

فاذا غلب على كتابة المشهد وصف تضاريس المكان وروحه صح أن تدرج فى باب أدب الرحلة • أما اذا سيطر على الكتابة تصوير خفقات القلب وحرارة الوجدان ، فان الكتابة تعد فى هذه الحالة من أدب المذكرات أو السيرة الذاتية أو أدب الاعتراف • وليس ثمة فاصــــل حاد بين النمطين لأنى لست رحالة ولا عالما جغرافيـــا ، وانما أنا شـــاعر يمتزج فى احســـاسه وفكره المكان

والزمان · فأما الأول فيمتد من أدق ذرة فى تراب مصر الى أبعد نجم فى سماء هذا العالم · وأما الثانى فيبدأ منذ ساعة ميلادى ويستمر حتى الساعة التى كتبت فيها هذه الصفحات ·

ثلاثية اليوم والأمس والغد فى هذا الكتاب توازى مسارات الزمان أو تتقاطع معها ، لتنتج عن هذا التلاحم أو التوحد خواطر وتأملات وذكريات ، أحسب أنها قد تفيد القراء ولا سيما أبنـاء الجيل الجديد ، وان لم أتعمد أن أحقق هذا الهدف ، وانما كان دافعى أن أستخرج ما فى أعماقى لأتعرف على حقيقة ذاتى ولأروى بعض ظمئى الى البوح ، وقد عبر شيخنا الكاتب العظيم يحيى حقى عن هذه النزعة بقوله (قدر الكاتب أن يتعرى ليكتسى الآخرون) ·

ومن ثم فقد اتسع الأفق السندبادى فى هذا الكتاب ليشمل السفر داخل النفس ، والسفر فى بلادى وفى المدن الأخرى التى عشت فيها أو أتيح لى زيارتها ، وكثيرا ما اجتمعت كل هذه الأسفار فى باقة واحدة كلما استعملت أسلوب تيار الوعى ·

وليس من عادتى أن أكتب يوميات أو مذكرات · ولذلك فانه من النادر أن أكتب فى اليوم الذى وقع فيه الحدث أو الأحداث التى ارويها مركزا على مكانهـــا أو زمانها · والأغلب الأعم أن أكتبها بعد وقت يقصر حتى لا يزيد عن بضعة أيام أو يطول الى سنوات · لذلك كانت فصول هذا الكتاب من فيض الذاكرة ، وكان الكتاب فى جزء منه من أدب الرحلة ، وفى أكثر الأجزاء من أدب الافضاء · كما كان مزيجا من الواقع والخيال ·· من عزف الجسد على وتر الروح وعزف الروح على قيثارة الجسد · وكان الانسان ـ أنا أو غيرى ـ بؤرة الصورة التى تجلت لى حين أمعنت النظر فى الطبيعة فى بلد قريب أو بعيد عرفت خطواتى طريقى اليه ، وامتلأت روحى به ففاض وحيها على قلمى ·

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب من أدب النثر ، فانه ينطبق على كثير من فصوله فيما أرى بعض الخصائص الفنية والفكرية التي تبينها الناقد الدكتور رمضان بسطاويسي في دراسة له عن ديوان لي صدر سنة ١٩٨٧ وعنوانها (فلسفة السفر والابداع الثقافي - قراءة في ديوان (مواويل النيل المهاجر) ، وتتمثل هذه الخصائص في قوله :

(هذا الديوان أشبه ما يكون برواية تصف رحلة بكاملها ، وهي رحلة داخلية وخارجية : داخلية بمعنى أنها تجوب داخل الذات المصرية ، وتقدم تركيبا خصبا للثقافات المتداخلة في بنية الثقافة المصرية الأم ، وكأننا نسير في عروق النيل ، لنستشعر نبض الأرض التي يمر الشـاعر من خلالها ، فهو يحمل سماته الخاصة وهو يغترب عن المكان ، فلا يذوب وانما يقاوم اجتياح مفردات الخارج لروحه ، ولذا يتخذ من النيل عنوانا لديوانه ومن المواويل اسما لأشعاره وأناشيده ، لأن النيل دون الأشياء جميعا - حين يهاجر يحمل معه طميه وسماته وملامحه، فالشاعر عبر رحلاته يتوحد بالنيل ليقرأ ذاته في الآخر .

السفر في هذا الديوان له فلسفة خاصـة ذات مستويات مركبة ، فهو يتحول من خلال التوحد مع الكون الى قراءة الوجود الانساني بمستوياته الوجدانية والسياسية والاجتماعية: فالتوحد مع الكون يجعل من مدارات الكون مدارات للذات التي تريد أن تؤوب الى نفسها . ولذلك تتواصل الذاكرة الثقافية من خلال التناص مع التراث ومفرداته والأسطورة وتاريخها) .

ولما كانت فصول هذا الكتاب تخاطب الروح وتتغيى من كتابتها تعميق الوعي بالذات وبالآخر من خـلال علاقـة سوية بينهما ، فقد تضفرت بعضها بقصائدي واتخذتها وشاحا لها ،

فأصبح الشعر والنثر بنية واحدة وزالت الحدود بينهما ، وذلك لأن الشعر ضرورة كما قال الفنان الفرنسى كوكتو وان كان قد أضاف الى ذلك التعريف عبارة (وان كنت لا أعرف لماذا) ، وهو ضرورة للحياة كى تستمر وتسمو وللابداع كى يغذى القلب ويزيد الانسان عراقة فى انسانيته كما قال المازنى .

واذا كنت قد أفضت فى الحديث عن ذكرياتى مع بعض الشخصيات من مغمورين ومشهورين راحلين ، فقد كانت هذه الافاضة للدلالة على الشخص وعلى زمنه أيضا مقارنا بعصرنا . وبذلك كان المكان والزمان اطارا للفعل الانسانى ، وكانت الكتابة قراءة فى تاريخ هذا الفعل من خلال ذلك النموذج الانسانى ، وتحولت الحروف والسطور الى كائنات حية تحاورنى وأحاورها .

وقد استرسلت فى تصوير علاقتى باحدى هذه الشخصيات فى أثناء رحلتى الى محافظة المنيا ، وهى شخصية الشيخ الحافى ولى الله الصالح الذى يقال اننى من أحفاده ، وضمنت كتابتى النثرية القصيدة التى أوحى بها الى ، فذلك لأن عثورى على هذه الشخصية التى رحلت من دنيانا منذ عهد بعيد كان تجربة فى المكان والزمان هزتنى هزا كأنها زلزال اجتاحنى ، وهذه التجربة كانت سفرا للروح فى عالم المجهول وان كانت قد انبثقت من الواقع ، مما جعل الواقعية عندى بلا ضفاف حسب تعبير الفيلسوف الفرنسى جارودى . فقد تنقلت من الواقع الى الغيب ثم من الغيب الى الواقع ، ومن الاحساس بالذات الى نقدها ، فدخلت الميتافيزيقا والخيال فى عروق الشعر والنثر ، وتعانقت الرومانسية مع الواقعية والرمزية والوجودية والسريالية ، الواحد فى الكل ، والكل فى الواحد . وتلك هى الحياة والمصير من خلال ثلاثية الميلاد المتجدد والموت والبعث أو الخلود .

وحسبى أن يجد صوتى والأصوات التى سكنتنى وعبرت عن ايقاعها صدى ولو ضئيلا فى نفوس المهمومين بالمجتمع وبالعالم والعاشقين للحرية والعدل والحب والجمال ، والمتحرقين شوقـا الى تحقيق الكمال الانسانى ، والباحثين عن النواة الحية فى صراع الانسان من أجل وطن أجمل وعالم أفضل ٠

١٩٩٩ د٠ حسن فتح الباب

أصداء عصرية من قرطبة القديمة(١)

★ مسافر متاعه الرحيل الى الرحيـــل .
★ خلف الطفل الضائع فى البريــــة .
★ فسرهمواتينـــــاه على الهرم .
★ غيرأن من بحثت عنه .. لم أجـــده .
★ كفان تتعانقان على نصب تذكارى قرطبى .
★ ولادة تنتحل شعر ابن الرومى بعد الف عام .
★ شاعر يطارد وآخر على رقعة الشطرنج .
★ عدوى الزمان القبيح تصيب الشاعر العاشق .

حملنى فى الصيف الى الجناح الآخر للمتوسط ، هناك حين رسونا تبادلنا المواقــع فحملته . كان طائر الهموم ، وكنت قد أجهدته من رحيل الى رحيل .. فالآن حق له أن يستريح .. صرت

فارسا صيادا فى آخر الزمان ، وصار هو الصقر العربى محمولا على كاهلى فى بلد كان يوما مستترادا لحوافر « صقر قريش » ٠ ولم تكن عودته بخفى حنين ، وانما بالبكاء والحنين : « يا زمان الوصل بالأندلس » ٠

فى قرطبة تحقق الحلم كئيبا وشاحبا كالهلال فى المحاق ٠٠ حلم الصبا الجميل ٠٠ وتذكرت قصيدة للشاعر الانجليزى هاوسمان يأسى فيها لعبث القدر به ، اذ حرمه فى صباه من المال الذى يمكنه من شراء ما تشتهى نفسه من مباهج الحياة ٠ ثم جاد عليه به وهو شيخ زاهد فى تلك المباهج عاجز عن الاستمتاع بها ، فما أغنى عنه ماله شيئا : « تغير الزمن اليوم ، فلو أردت الشراء لاشتريت ٠ هنا الدراهم فى الكيس وهناك أشياء الأمس فى السوق ٠ ولكن أين ياترى ذلك الفتى المحروم ؟ » وتداعت فى الذاكرة أبيات ابن الرومى الساخرة فى وصفه رحلة الشتاء ورحلة الصيف ومكايدات زمنه له ، وبيت فريد لشاعر عربى فى مفارقات القدر عطاء ومنعا فى رحلة العمر :

آواه لو عرف الشباب
وآه لو قدر المشيب

هم واحد وهو المعادلة الصعبة فى الجمع بين نقيضين وان تغير أحد طرفيها وبقى الآخر ثابتا ٠ فهى عند الشاعر الانجليزى قوة الرغبة وضعف الحيلة فى الصبا ، فى مقابل ضعف الرغبة وقوة الحيلة فى الشيخوخة ٠ وهى عند شاعرنا العربى امتلاك الشباب القوة وافتقاره الى الحكمة ، فى مقابل امتلاك الكهولة الحكمة وافتقارها الى القوة ٠

وامتزجت فى أعماق الشيخ المتجول فى دروب قرطبة المزهرة أصداء هؤلاء الشعراء بصوت أبى الطيب الحزين المهموم :

آتى الزمان بنوه فى شبيبته
فسرهــــم وأتينـــاه على الهرم

واحتوتنى القافلة فطالما تهدجت الأنفاس لهاثا لادراك الطفل الضائع فى البرية . وحين وجدته كان مطفأ البريق فى العينين ، وان ظل يحمل قلب طفل وربما الدهشة لبرعم أخضر ، وقد نبت فى صـــدره جرح ندى كالوردة . وغمغمت بأبيـــات كتبتها منذ سنوات خلف أسوار السجن المفتوح :

مسافر الى الشمال

زهر من اللوتس .. حزمتنا شعاع

مسافر بلا متـاع

ألقى بى القطار فى محطة محتشدة

رأيت فيها من رأيت غير أن من

بحثت عنه .. لم أجده

*** * ***

هذه قرطبة ولادة وابن زيدون .. كفان تتعانقان على نصب تذكارى أقامه المركز الاسلامى الأسبانى بمدريد فى ركن من حديقة عامة حاملا رسالتين .. قصيدتين .. رقيقتين محفورتين على الرخام الصقيل ، كأنهما - رغم ما علق بهما من غبار - تشيعان فى هيكله الجامد البارد الذى يحمل الكفين بعض حرارة أنفاس العاشقين .. يتبادلان فى الموت والغربة حروف القلب الوردية الضوئية كما تطارحاهــا فى الحياة والوطن ، بين جدران القصــور المحفوفــة بالأسرار والوشايات ، والتى لم يعرف أربابها الحب أبدا كما

عرفته ابنة الخليفة المخلوع وشاعرها العاشق المضيع ـ أديبا ووزيرا ـ على رقعة شطرنج السلاطين ، بين بلاط ابن جهور ـ حين يستوزره ـ وبين سجنه ـ حين يغضب عليه ـ شنشنة نعرفها ويعرفها إبن زيدون من أخزم ، وأخزم هنا هو ملوك الطوائف بالأندلس .

فهو لم يكن يجهل أنه يغامر اذ يعمل فى الحاشية ، فلاشك أنه قرأ « كليلة ودمنة » فعرف مؤامرات القصور ، وربما كانت مغامرته ـ فى ظنه ـ محسوبة ، فاذا أخطأ فى الحساب فانه يرجع الأمر كله للقدر كما نرى فى قصيدته التى كتب بها الى أحد الرؤساء ، وهو فى سجن إبن جهور الذى استولى على قرطبة فزال ملك بنى أمية ثم ملك العلويين ، وفيها يشير الى سبب سجنه وهو اتهامه بالمروق والتضليل ، مما يدخل فى باب التآمر والتحريض على السلطة :

ما على ظنى باس
يجرح الدهر وياسو

ربما أشرف بالمر
ء على الآمال ياس

ولقد ينجيك اغفا
ل ، ويؤذيك احتراس

ولكم اجدى قعود
ولكم اكدى التماس

وكذا الحكم : اذا ما
عز ناس ، ذل ناس

ما ترى في معشر حا
لوا عن العهد ، وخانوا ؟

وداوني سـامريا
يتقي منه المساس

اذؤب هامت بلحمي :
فانتهاب وانتهاش

ولا شك أيضا أن ماشهد من التقلبات فى عصره وانعكاسها على حياته حتى اضطر الى العمل فى ديوان آل عباد بأشبيلية تاركا مدينته المحبوبة قرطبة حتى آخر العمر ، لاشك أن ذلك قد أوحى اليه برسالتيه الشهيرتين « الجدية والهزلية » ٠

يصدح الشاعران فى حديقة العشاق بقرطبة غير بعيد من جامعها التاريخي العريق ، وتمرح الطفولة وقد التف شباب قرطبة العصر يتبادلون الحب على الطريقة الأسبانية التى تعطى الطريق بعض حقه على خلاف باريس ولندن ٠٠ النصب فى نصفه الأعلى – ويا لرهافة احساس المثال وتقديره للمرأة – محفور عليه بيتان كتب تحتهما « ولادة » :

أغار عليك من عيني ومني
ومنك ومن زمانك والمكان

ولو انى خبأتك فى عيونى
الى يوم القيامة ما كفانى

وجمت للوهلة الأولى ، فولادة امرأة مثقفة ناعمة من بنات الملوك ، ولكنها فيما أعرف لم تبلغ هذا المستوى من الشعر ، وبقى

معى هذا الهاجس حتى أسعفتنى ابنتي ــ بعد أن خانتنى الذاكرة ــ بأن البيتين لابن الرومى ، وأنها استشهدت بهما فى بحث كتبته للتدليل على توليده للمعانى واستنفاده اياها حتى لا يبقى بعده قولا لقائل كما وصفه النقاد القدامى ، وأنى قد نبهتها الى أبيات أخرى له تصلح نموذجا آخر لتلك الخاصة الفنية عنده :

أعانقها والنفس بعـد مشوقـة
اليها وهل بعد العناق تدانى

وألثـم فاهـــا كى أبرد غلتى
فيزداد ما ألقى من الهيمـــان

كأن فؤده ليس يروى غليـله
سوى أن يرى الروحين تعتنقان

وأضافت : مازال سوء الطالع يطارد ابن الرومى حيا وميتا حتى يأتى بعد أكثر من ألف عام من ينسب شعره الى غيره وهو الذى لم يكن يملك شيئا سواه ، وطالما تحسر قائلا :

لم أكن دون مالكى هذه الأملاك لو أنصف الزمان المحابى !

وأصابت عدواه ابنة المستكفى التى جاء بها الزمان بعده بنحو مائتى عام ، حين انتحلت شعره بعد أن فارقت الأندلس الى العالم الآخر بمئات السنين ، وكأنما لم يكف الجانى المجهول عبثه بالشاعر والشاعرة ، فعبث بالشعر بتحريفه عن مواضعه فهو فى أصـــله :

أغار عليك من عينى رقيـــبى
ومن عينى وعينـــك والزمان

ولو أني وضعتــك في عيوني
الى يــوم القيــامة ما كفاني

ولم ينج ابن زيدون من المأساة الأدبية فى عصرنا القبيح ، فقد نسب اليه فيما حفر على النصب بيتان ركيكان لم يسلما وزنا ولا قافية ، فأين من نونيته المشهورة هذه الراءات المحتضرة :

يا من غدوت به فى الناس مشتهرا
قلبى يقـاسى عليـك الهم والفـكرا

ان غبت لم ألق انســانا يواسينى
وان حضرت فكل النـاس قد حضروا

لغو لا ينحدر اليه من يقول هذه الأبيات التى لا تنسى :

ودع الصبر محب ودعــك

ذائــع من سره ما اســتودعك

يا أخا البدر ســناء وســنى

حفظ الله زمانا اطلعــك

ان يطـل بعدك ليـلى فلكم

بت أشكو قصر الليــل معـك

أصداء عصرية من قرطبة القديمة(٢)

- قيس بن الملوح بين تيماء وقرطبة ·
- عبق الورد والتاريخ فى المشربيات القرطبية ·
- الحجارة وحدها تتكلم لغة ابن رشد وابن شهيد ·
- ابن عبد ربه مليح الأندلس عند المتنبى ·
- ذهبت الوزارة والرياســـة وبقى طوق الحمامـة والملـل والنحـل ·

رفيقة البراعم والأشواك فى ذراعى ، أنفاسها حرى بالحلم المستعاد ، ولكن عبء الصخرة يشــغل تجاويف الضلوع ويثقـل العظم المنخور ·· قارب لا يستطيع الابحار ، يعود أبو الطيب مرة أخرى :

أصخــرة أنــا مالى لا تحــركنى
هذى المدام ولا تلك الأغاريــد

ها هي شمس يولية ، ولكن هذا الصيف الذى طالما انتظره مجنون ليلى عاد ولم تعد ليلى :

ونبـــأتمانى أن تميـــــاء منزل
لليلى اذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهور الصيف عنا قد انقضت
فما للنوى ترمى بليـلى المراويا

ليست هذه « قرطبة » حلم السنين المشتهى ، انها « كوردبا » الأسبانية ، غانية أوروبية متألقة وكل المدن سواء — ٠٠ تتعاظم العمارات الشواهق والسوبر ماركت والسيارات وتتضاءل روح الانسان الذى رفعها ٠٠ قوة العلم والحضارة تواجه ضعف النفس حين يكون الفرد هو القطب وتذوب الجماعة الا يوم تنتظم حبات عقد الغرماء فى سوق الأوراق المالية ، ويدور الكمبيوتر لاحصاء أرباحهم منتصرين وخسائرنا منهزمين فى لعبة عالم الشمال وعالم الجنوب ، أو يوم تنتظم فى فوضى حلبة مصارعة الثيران « تورو تورو » ، أو فى علب الليل ومراقص « الفلامنكو » ٠

يعب الفرد كؤوس الزهو والمرح وبهجة الحياة حتى الثمالة ٠٠ تتدافع الدماء الحارة فى العروق وينطفىء وهج العلاقات الانسانية٠ ما أروع الحياة للمنعمين ، والويل للشــاردين والمسحوقين تحت أقدام الوحش الكاسر المخضوب الأظافر بأحدث منتجات التجميل فى الشركات المتعددة الجنسيات ٠ ياللنعومة الجارحة حتى العظم والضوء المتوهج حتى احتراقنا ٠ تطفح الوجوه حولنا بالبشر ٠٠ الآن وبعدنا الطوفان٠٠ يومنا هذا هو المبتدأ والخبر ، هو الافتتاح والخاتمة ٠٠ لا صحو اليوم ولا صحو غدا ٠٠ نحن ركاب المحطة

الأخيرة ·· تلك شعارات الأقدام العجلى اللاهثة فى وسط المدينة ·· لكن حواشيها تنساب تحت الخطوات الصغيرة المتوثبة الحالمة خضرة ورياحين ووردا فى وجنات الاطفال والخطوات الوانية لرفقاء العمر المولى والزمن القديم · وجهان يلتقيان ويفترقان بين القلب والحواشي ·

مازلنا نحن الى اغفاءة خدر ، هنيهات قصيرة فى عبق التاريخ ·· فجأة تلفح وجوهنا ·· عيوننا وقلوبنا ريح من الماضى حين استقبلنا واستقبلتنا أطلال مازالت تحمل روح الشموخ من بعيد ·· هذه قرطبة العربية ·· خطوط رفيعة متعرجة على كف لا تبحث عن قارىء الحظوظ ، فغرامها رنين « البيزتا » البرنزية والفضية فى أيدينا ·· أيدى السواح الباحثين عن متعة من الماضى حين عزت عليهم مسرات الحاضر البائس · تتحدر بنا وتتلوى دروب قرطبة العربية حين بلغناها ، فنذكر حى القصبة فى تونس والجزائر فى خان الخليلى فى مصر ، طراز معمارى واحد ·· ولكن غبار التاريخ ينجلى عن « مشربيات » قرطبة وتعود اليها أصص الزهور كما كانت منذ القرن الثامن الميلادى واستمرت مئات السنين ·· والتاجر الأوروبى اذا جرى بينك وبينه حوار يعرف كيف يستل منك راضيا ما أعددت من متاع للرحلة ولو كان متاعا قليلا ·· دراهم معدودة ·· « فالبوتيكات » السياحية تضىء ملامح البلى على وجه قرطبة القديمة ، وتتحول « ولادة » الأوروبية الى بائعة معطرة حاذقة بفن الابهار ·

البيت الشرقى الذى يتوسطه فناء وتتوسط الفناء نافورة ولم يفسد تجديده أو اعادة بنائه هندسته العربية

بل زادها نضارة وبهاء · كل حجر أو منفذ كما كان بالأمس ·· والحجارة وحدها عبر الأبواب والابهاء والنوافذ والأسقف هى التى

تتكلم لغة ابن زيدون وابن رشد فيلسوف قرطبة · ولولا حوارنا معها لاشتدت غربتنا كما اغترب المتنبي في شعب بوان في فارس القديمة · هذه الحجارة شاهدة الأمس وشاهدة اليوم ، فهي لم تنس بعد لغتها — وقد أعادتها الشيخوخة الى طفولة — لأنها ذاكرة التاريخ التي لا تصدأ · شاهدة علينا لأن المستلبين منا بالغرب يزهدون في لغة قومهم فيهجرونها حتى تبلى على ألسنتهم بمر السنين عجمة وأعوجاجا ·

الأسبان متعصبون للغتهم ·· عرفنا ذلك من قبل في ايطاليا ·· ليس هذا تعصبا فاللغة هي هوية الشعب وتتحدث الى أحدهم بالفرنسية أو الانكليزية فيدعى الجهل ، الا اذا كنت في مكتب ارشاد سياحي ، وتدرك من ملامحه انه يعرف ، فكأنه سفير للغته ولحضارتها ·

انه الاحساس بالانتماء الوطني أو القومي · وربما يكون تاجرا ويؤثر أن يضحى بالصفقة لعقم الاتصال ولا يتهاون في المبدأ · ومن يدرى فربما يعود ذلك الى أن الأوروبيين لا يعرفون أسلوب التبادل في معاملاتهم معنا ، فهم الذين يصدرون ونحن المستوردون ، قسمة عادلة أبدية ! فلا ينبغى أن ينقلب الهرم الذى دام أحقابا طوالا رأسا على عقب ، وهم لا يعتنقون نظرية المثلث المتساوى الأضلاع !! ولا يدينون بغير مبدأ الثوابت فلا جدال !!

لمحنا — ويا للمفاجأة — عبارة عربية على مبنى ·· لم يكن الحجر هو الذى يتحدث بلغة فرسان بنى أمية وعلمائها هذه المرة ، ولكنها هي التي فرضت نفسها على قرطبة الأسبانية في حيها القديم ، كما فرضت عيون الصبايا الأندلسيات حورها واتساعها على عيون بنات القوط · « مركز ابن حزم » هكذا على واجهة

أيبرية يسطع حرف عربى · هذا أنت أيها الشاعر المؤرخ والأديب المتحضر الجسور تعود الينا كلما رجعنا الى كتابك البهيج « طوق الحمامة » ، انحدرت من أصل مسيحى واعتنقت لاسلام ، ومن السماحة الى الحق والعدل تعمقت انسانيتك · وتعود الينا اليوم — على غير موعد — لتؤنسـنا أو لنـأتنس بك بين كتابك « الملل والأهواء والنحل » الذى يعتبر أول تاريخ مقارن للأديان وبين فقه الجمال والحب فى « طوق الحمامة » ، ومن أين انبثقت كل هذه الينابيع الفكرية والأدبية لتقدم هذا العطاء الزاخر لا تشغلك عنه مناصب الوزارة والرياسة ؟

لست فى حاجة أيها العالم الخالد الى أن يصبوك فى نصب حجرى بمدينتك ، وأنت المرفوع الهامة على أعظم ما شاده الانسان من عروش ، أنت الشهاب الوضـاء فى ظلمات أوربـا فى العصور الوسطى · كفك لم تعانق على صفحة صخرية مثـل ابن زيدون عيوننا ، ولكنها مازالت مبسوطـة — بعد رحيلك — تمدنا بزاد الحكمة الذى طالما وسع الناس جميعا فى حياتك · كم كنت كريما وحكيما أيها القلب الكبير · هـا أنت تفتح لنـا — نحن الذين أوصدت فى وجوهنا أبواب « طيبة » مدينتنا ·· كل المغاليق ، موكب مهيب حافل يمر كالأمواج على بحر الذاكرة · فنحن فى قرطبـة التى أنجبت وأظلت مئـات الأدبـاء والعـلماء فى عصر عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر ، وأخرجت الآلاف من ذخائر العلم ·

ذهب الناصر والمستنصر ، وذهبت أنت ومجنون ولأدة وابن شهيد وزراء ، وخلدتم كتابا بلغاء أو شـعراء مبـدعين · أبحث بلا طائل عن أثر لابن قرطبة البار ابن شهيد ، وابن عبد ربه الذى طالما أطرب شعره المتنبى حتى سماه « مليح الأندلس » · وكأنما ود أبو الطيب لو كان عاشقا متيما مثلك يا مبدع « العقد الفريد »،

فيرق قصيده الذى أعجز معاصريه بجبروت صياغته وقوة فكره الثاقب كما رق شعرك ، فكان يغنى لك فى خلوته الموحشة وقد ألقى خلفه قناع الصرامة والكبرياء ، واستخفه النغم الرقراق هو الذى كتب عليه صراع الشقاء :

أيها البدر الذى ضن علينا بالطلوع

ابغ لى عنرك قلبا طار من بين ضلوعى

يابديع الحسن كم لى فيك من وجه بديع

❋ ❋ ❋

أصداء عصرية من قرطبة القديمة(٣)

- حرف عربي فى التيه الأيبيرى !!
- رواسب قوطية قديمة تغذيها رقطاء منسلة ٠
- أى الحضارات أكثر انسانية ؟ هذا هو السؤال ! ٠
- الأعمدة الرومانية والأعمدة العربية فى القيروان ٠

ما كان لنا أن نقترب من أسرار قرطبة عاصمة الدولة الأموية فى الأندلس فى القرن الثامن الميلادى ، ومدينة ابن رشد وابن حزم لولا تلك المصادفة المسعدة التى قادت خطانا الى (المركز الثقافى العربى القرطبى ـ ابن حزم) الذى يحمل لافتة عربية ٠٠٠ مسنا نسيم روحى من فرط النشوة أنعشنا ، ونفضت أقدامنا غبار التعب من طول ما مشينا فى حى قرطبة المسحور الذى يعود بنا القهقرى بعيدا بعيدا مثل بعد واقعنا عن حقوق الأحرار والمضطهدين من أهلنا فى فلسطين ولبنان وفى عالمنا الثالث الأخير ٠ كان المركز

لسوء الحظ موصدا بابه • وكنا على أهبة الرحيل الى بلدة أخرى أندلسية بعد أن أمضينا ليلة فى قرطبة • ولكن قرطبة تستحق ليلة أخرى بعد أن عثرنا على مفتاحها ، مركزها الثقافى ، فقد نجد فيه وجها عربيا يرشدنا ويتحاور معنا •

تحققت المشيئة فى اليوم العاشر من يولية اذ وجدنا فى مركز ابن حزم وقد فتحت أبوابه من يستقبلنا ••• سيدة جميلة مولدة فالأب مغربى من طنجة والأم أسبانية كما قدمت لنا نفسها بعد أن عرفناها بنا ••• بادرتنا بالتحية والتهنئة (كل عام وأنتم بخير) ، اذ كان اليوم عيد الفطر فى مصر والمغرب ووقفته فى الجزائر من حيث قدمنا • سألنا : من يدير المركز فانا فى حاجة الى نشرات وكتب وحوار ؟ وتبادلت حديثا هاتفيا مع الدكتور أحمد الشبلى الذى يسكن فى الطابق الثانى من مبنى المركز •

وحين علم أننا معجلون ولا وقت لدينا لقضاء ليلة ثالثة فى قرطبة حتى نعود اليه فى الغد ليفرغ لصحبتنا ، استجاب للرجاء • وتعارفنا •• شــاب مثقف من الأردن تخرج فى احــدى الجامعات الأسبانية طبيبا ، ذو حس عربى أصيل غيور على الحضارة العربية الاسلامية دارس لها • لذلك أسندت اليه بلدية قرطبة أمر هذا المركز بعد أن خصصت له البناية الصغيرة التى يشغلها الآن •• سألته عن الدعم الذى يتلقاه المركز من الدول العربية ومنظمة التربية والثقافة (اليونسكو)بالجامعة العربية • أسفت اذ أخبرنى أن الأمر كله يقوم على ما يبذله من جهد فردى تعينه عليه علاقاته الحسنة بالبلدية ، نظرا لطول اقامته فى أسبانيــا ومن ثم اتقــانه لغتها ومصاهرته أهلها ، فالزوجة أسبانية والولد اسمه على •

مازال المركز فى طور التكوين منتظرا الكثير ليحقق رسالته فى مجال احيــاء التراث الأندلسى فى قرطبــة ، فاليد الواحــدة

لا تصفق · ونشعر بشيء من المرارة في صوت محدثنا لما آل اليه اهمالنا هذا التراث وعدم التعريف بدور العرب والمسلمين في العصور الوسطى في مختلف ميادين الحضارة الانسانية ، وأثرهم في نشأة عصر النهضة في أوربا · وقد أدى هذا الاهمال الى استشراء نزعة التحقير من شأن كل ما يتصل بالعرب في نفوس بعض أبناء الجيل الأسباني الجديد ، اذ أضيف الى الرواسب التاريخية التي خلفها الصراع الدموي الطويل بين العرب في الأندلس وفي المغرب العربي ـ وكانا وحدة متكاملة ـ وبين الكاثوليك القوطيين المتعصبين ، مؤامرات الصهيونيين النازيين الجدد ، وافك بعض المستشرقين والهزائم العربية المتوالية الآن ، وتصرفات بعض السائحين الأغنياء من العرب · فأصبح بعض الأسبان ممن ينحدرون من أصول عربية يخجلون من هذا الانتماء ، اذ وقر في أذهانهم ووجدانهم أن العروبة مرادفة للهمجية والتخلف وينفي هؤلاء ما يعدونه وصمة لهم مشيرين الى وجوههم وشعورهم الشقر ، على الرغم مما هو ثابت تاريخيا من أن بعض القوط قد دخلوا في الاسلام بعد فتح الأندلس ·

وصدق المثل العربي القديم « رمتني بدائها وانسلت » فما عرف التاريخ القديم همجية مثل بربرية الرومان ، لقد كانوا قوما غزاة قساة غلاظ الأكباد معادين للحضارة الانسانية ، على نقيض في ذلك مع العرب والمسلمين · كانوا ـ والحديث لمدير مركز قرطبة في شأن الرومان ـ يدمرون البلدان بعد غزوها ويمحقون حضاراتها تحت سنابك جيادهم · وافقته وتحفظت موضوعيا بشأن نفيه الحضارة مطلقة عن الرومان ، فقد كان لهم فضل في ابداع القاعدة القانونية ، والقانون علم من العلوم الانسانية ، ولندع جانبا اسهامهم في جوانب أخرى· فلكل حضارة ميزاتها وعيوبها ، جوانبها المضيئة وجوانبها السلبية لأن الحضارة من صنع البشر ، وكل ابن آدم

خطاء كما قال الرسول عليه السلام . ولكن السؤال الواجب طرحه هو : أى كفتى الميزان أرجح ؟ وبعبارة أخرى : أى الحضارات أكثر انسانية ؟ هذا هو الفيصل فى التقييم . أما محو الأقوام المنتصرين آثار من سبقوهم وحضارة المغلوبين فهو سنة تاريخية معروفة فى عصور البشرية الأولى حتى العصر الوسيط .

أما اليوم فقد نضجت البشرية ، فأصبح ما كان شريعة بالأمس فى الحروب محرما فى العصر الحديث . ومن هنـــا كانت ادانة الفاشية والنازية والصهيونية وسائر أشكال العنصرية . فلا ينبغى أن نحكم على الماضى بمقياس الحاضر ، مغفلين الحقيقة الأولى من حقائق المسيرة البشرية وهى التطور من خلال الصراع . ولا ينبغى لنا أيضا أن نهمل جانب الحوار بين الحضارات وتزاوجها . فقد اقتبس المسلمون الأوائل من نظم اليونان والروم والفرس والهند ومن أساليبهم وعلومهم ما ينفعهم فى التقدم ولا يتنافى مع المبادىء الاســـلامية ، وتمثلوا ما نقلوه ثم أضـــافوا اليه فى ابداعهم . ولو كانت كلها شرا لنبذوها . والمستنيرون منا يدعون اليوم الى احياء ذلك التقليد المحمود ، فالاسلام دعوة سلام ووئام وتعاون بين الناس جميعا ، ولا حرب الا على المعتدين .

أردت أن أناوش هذا الطبيب الرائع فى أصالته حتى نكسبه مدافعا صلبا عن الحضارة العربية الاسلامية طبقا للمنهج العلمى الموضوعى فالمبالغــة تضر أكثر مما تفيــد ، وقد تصــل بنــا الى « الشوفينيــة » الضيقــة، فى حين أن عظمة قوميتنــا أنها متفتحة وانسانية، فلا فضل لعربى على غيره الا بالتقوى والعلم ، ولنا ما لهم وعليهم ما علينا . قلت ان فى المسلمين أيضا من حولوا الكنائس الى مساجد بعد انتصارهم فى الحرب مثلما حول خصومهم المساجد الى كنائس بعد غلبتهم . وتلك حقيقة تاريخية مسلمة . وهى لا تغض

من قدرنا . فالأولى بنا ألا ننكرها ، وانما نعترف أن تلك الممارسات منافية لجوهر الاسلام وتعاليمه التي أكدها النبي عليه السلام في وصيته للصحابة قبل خروجهم للفتوحات الاسلامية : أن يتجنبوا هدم الكنائس والأديرة والبيع لأنها أماكن عبادة لأصحاب كتاب من النصارى أو اليهود ، وأكد الوصية عمر العظيم في واقعة صلاته المشهورة في بيت المقدس بعد فتح المدينة العريقة . انه لا يمس عظمة الاسلام والمسلمين الحقيقيين انحراف بعض تابعيه عن مبادئه . فلا يؤخذ الصالح بذنب الطالح . (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . ومن هذا المنطلق يجدر بنا أن نفرق بين المبدأ والممارسة .

وأضفت ــ لعلني أفيد من معلومات الدكتور الشبلي مدير مركز قرطبة الثقافي ــ أنني شاهدت أعمدة رومانية في بعض المساجد ، يظهر ذلك جليا في مسجد عقبة بن نافع الصحابي الفاتح الجليل في القيروان ، اذ تختلف بعض الأعمدة عن بعضها الآخر في الطراز الفني المعماري ، مما يدل على انتمائها الى عصور مختلفة وأقوام مختلفين . عمود ذو طابع عربي اســـلامي يجاوره آخر ذو طابع روماني .. انه توارث الحضارات . كما أن الحرب هي الحرب « وما الحرب الا ما علمتم وذقتم » كما يقول زهير بن أبي سلمى ، فلا مفر من أن تنتج تدميرا وتشويها . فاذا دارت معركة داخل مبنى اعتصم به الخصم فان من الطبيعي ألا ينجو من الخراب سواء أكان قلعة أو بيتا للعبادة أو دار علم أو مسرحا أو ملعبا . فنحن بشر يعيشون على الأرض لا ملائكة سماوية .

ولا شك أن هذا ما وقع في الفتح الاسلامي للشمال الأفريقي . لقد سقطت أعمدة رومانية فانتفع بها المسلمون في بناء المساجد ، لأن الحجر هو الحجر لا قداسة له ، وانما القداسة لمكان العبادة الذي بني به . ولولا ذلك ما قال الخليفة العادل عمر بن الخطاب

ـ كما أثر عنه ـ وهو يقوم بشعائر الحج ومنها لثم الحجر الأسود : « ما أنت الا حجر ، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك » · أو قال عبارة أخرى تؤدى هذا المعنى ·

غير أن محدثنا كان لديه رأى آخر يقع منه موقع اليقين · فالأعمدة التى أقيم عليهـا مسجد عقبة كلها فيما يرى من طراز عربى ، وليس ثمة مثيل لتيجانهـا فى الشـكل فى أية بقعة على المعمورة· وما روجه بعض الأجانب مخالفا لذلك هو محض افتراء ، حيث ينهى الدين الاسلامى عن أخذ مال الغير ، كما أن العرف الاسـلامى يتطير من اسـتخدام بقايا البيوت والأماكن المهجورة والانتفاع بها ·

أصداء عصرية من قرطبة القديمة (٤)

- **كرنفال سياحي حول البيت الأسطوري !!**
- **حتى ابن رشد وابن ميمون يفرقون بينهما اليوم .**
- **محنة فيلسوف قرطبة بين حرية الرأى وبين المنفى .**
- **هبك تهيأت لذلك الدست ، ما تصنع فى قصة السبت ؟**
- **ما أقرب اليوم الى البارحة !!**

لم يسلم الحى العربى الوحيد الباقى فى قرطبة ـ كأنما يشهد العالم أن ها هنا كانت حضارة انســانية زاهرة ـ من ملاحقة الصهيونيين للآثار العربية طمسا وتزييفا ، ولسان حالها يقول مع المتنبى : « حتى على الموت لا أخلو من الحسد » . تراهم يخشون أن ينتفض طائر الفينيق من رماده ويبعث من جديد ؟فهم يطاردونه ليدركوه أينما كان فى المشرق أو فى المغرب كأنهم الطاعون ؟ هكذا وجدت الشيطان حولى من حيث لم أحتسب :

سد شيطان حقده كل فج   ان شيطان حقده لمريد !

عن يمينى وعن شمالى وقدا   مى وخلفى، فكيف عنه أحيد ؟

ومعذرة يابن الرومى . يا رفيق الشعر والاغتراب ، اذا استبدلت بشيطان حبك « وحيدا » شيطان الحقد الصهيونى على الانسان ٠٠ على الحضارة والتاريخ والمستقبل ٠ وجدته فجأة يسألنى بلغة عربية سليمة : « من أين قدمت ؟ » كان وجهه يحمل سمات شرقية خادعتنى للوهلة الأولى لولا اشارة خفية من الصديق الشبلى الذى كان يبادله الحديث ٠ ولم يكن وحده اذ كان يصحب فوجا صغيرا من السائحين فى طريقهم الى « المعبد اليهودى » بقرطبة القديمة !!

من أقصى الأرض ومن أدناها يجيئون طوال العام بحثا عن هذا المعبد فى الحى العربى الأندلسى ، فيجدون من يستقبلهم ويرشدهم ٠ أما نحن فلولا المصادفة البحتة لعدنا من حيث أتينا دون أن نلتقى بالظاهرة الصهيونية مجسدة أمامنا ٠ رافقنا الصديق الى الكنز اليهودى المنشود ، بيت عربى مثل عشرات البيوت فى ذلك الحى ، وكان مغلقا ٠ سألنا : فأين المعبد ؟ وكانت الاجابة : « هوذا ما يدعون » ٠ ففى الداخل غرفة لا تختلف بالمثل عن أية غرفة فى أى بيت ٠٠ يقولون ان صاحب الدار كان يهوديا ، وكان يتخذ منها محلا لأداء الطقوس الدينية ، فاتخذوها بعده مزارا مقدسا يحجون اليه من كل مكان ، ليثبت أفاكو الحركة العنصرية الصهيونية أن لهم تراثا قديما وأمجادا تمتد من المشرق الى المغرب ، وتقع فى عقر دار التاريخ العربى الأندلسى ٠ ومن خلل الباب الموصد تسللت منا العيون بحثا عن أثر نسجوا منه أسطورتهم ، ولكن عبثا كانت المحاولة ٠

الى هذا المعبد الوهمى تتقاطر وفودهم لا تقصد فى قرطبة كلها غيره ، فجولتهم تبدأ منه وتنتهى عنده ، ولا يفوتهم أن يلقوا نظرة على تمثال ابن ميمون ويتحلقوا حـوله مزهوين لالتقاط صـور تذكارية ، مشيحين عن تمثال آخر غير بعيد عنه يخلد ذكرى ابن رشد ، متجاهلين الحقيقة ، فكلاهما عالم وفيلسوف أندلسى وان كان البون بينهما شاسعا فى المكانة العلمية · فمازال يعقد فى عصرنا المؤتمر بعد المؤتمر لدراسة فكر ابن رشد وانتاجه وأثره فى حضارة أوربا فى عصر النهضة · ويكفى أنه أحيى فلسفة أرسطو وشرحها حتى أطلق عليه [الشارح] ، ثم اختط له فكرا مستقلا ومنهجا خاصا استخدمه فى البحث حتى وصل الى نتائج أثرت رصيد المعرفة الانسانية · ويكفى أيضـا أن من أكثر الفلاسفة تأثرا به توما الأكوينى وروجرز باكـون رائد المدرسـة التجريبية التى تممهـا فرانسيس باكون ، وكانت كتبه المترجمة مفروضة على طلاب جامعات بولون وباريس ·

ولم يكن هنالك أوربى مثقف فى القرن الثالث عشر الميلادى لا يعرف ولا يدرس ابن رشد · وقد كانت فلسفته أساس مدرستين غربيتين لهما شأنهما وهما مدرسة الحقيقيين ومدرسة الاسميين · وهو لم يكن فيلسوفا فحسب بل كان عالما موسوعيا · درس الكلام والفقه والشـعر والطب والرياضـيات والفلك ، وتولى منصب القضاء · واشتهر بكتابيه (فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال) و (تهافت التهافت) فى الدفاع عن الفلسفة ردا على الغزالى· وما زالت قضايا علم النفس والوجودية تحوى بذورا من فكر ابن رشد ، وتنقسم الآراء حوله بين مؤيد ومخالف يجمع بينهما احترامه وتقديره ·

ولم يكن الفكر العبقرى وحده ميزته ، وانما السلوك القائم على الشجاعة فى ابداء الرأى لا يخشى فيه بطش حاكم ولا مؤامرة

حاقد . ومن ثم كانت محنته ـ شأن غيره من رواد حرية الفكر الكبار في التاريخ ـ اذ انقلب عليه الخليفة أبو يوسف يعقوب المشـهور بالمنصور سنة ١١٩٥ م ، وعقد له محاكمة صورية بمدينة قرطبة لأسباب اختلف في شأنها المؤرخون ، وربما كان أصحها ما ساء الخليفة من ترفع ابن رشد وامتناعه عن تقديم فروض الولاء والطاعة له . فأحرقت كتبه حتى لم يبق منها الا القليل ، وأبعد منفيا الى قرية تسمى اليشسـانة (لوسينا) بجوار قرطبـة على أن يلزمها ولا يبرحها . وقد بلغ من سموحسه الانسانى أنه كان يؤثر الرحمة على العدل ، اذ يروى عنه أنه كان فى قضائه يتحرج من الحكم بالموت ، فاذا وجب الحكم به أحاله الى نوابه ليحكموا فيه ، رغم أنه جمع قضاء الأندلس والمغرب معا وهو دون الخامسة والثلاثين من العمر .

فماذا عن ابن ميمون الذى يؤثره أبناء الأفاعى بالزيارة . انه أحد تلاميذ ابن رشد الذين ترجموا فلسفته . وتعرفه المعاجم بأنه أبو عمران موسى ، ولد فى قرطبة ودفن حسب رغبته فى طبرية بفلسـطين . وقد هجر الأندلس وأقام بالقاهرة حيث انصرف الى ممارسة الطب فاشتهر حتى أصبح طبيب صلاح الدين الأيوبى . له عدة مؤلفات طبية ودينية ، منها (دلالة الحائرين) ، وكان له أثر عند مفكرى القرون الوسطى فى الغرب . وقفت أتأمل تمثاله ، وربما شاءت هواية ابنى التصوير أن يلتقط لى هذه اللحظة للذكرى .

وفاجأنى الصديق الشبلى : (سوف يحسبونك الآن يهوديا) . تلك هى المسألة اذن .. فلولا أن هذا المفكر كان يهوديا وربما لأنه أوصى أن يدفن فى طبرية لما كانت كل هذه الحفاوة . لقد أسلم الرجـل ، ولكنهـم مع ذلك يعدونه من أقطابهـم ، لتتبـاهى به الصهيونية . هؤلاء الأبناء الذين يؤثرون ابن ميمون يعرفون أننا

نفرق بين اليهودية وبين الصهيونية ، وأن التاريخ يشهد أن اليهود لم يأنسوا فى ظل أى سلطة مثلما كانوا فى عصر الدول الاسلامية مشرقا ومغربا حيث كانت تتعايش كل الأديان · فما عرف العرب والمسلمون التعصب الا اذا أكرهوا على اتخاذ موقف العداء للدفاع عن كيانهم بعد عدوان ·

وتحت أفياء هذا التسامح نبغ ابن ميمون فى قرطبة وفى القاهرة ، كما نبغ غيره من اليهود وولوا أعلى المناصب لأن العلم لا وطن له ، فالعالم أيا كانت ديانته هو ذخر للانسانية طالما استخدم مواهبه فى الرقى بها ·

ومثل ابن ميمون عديد من المثقفين اليهـــود الذين اعتنقوا الاسلام فى الأندلس ، كالشاعر ابن سهل الأشبيلى الذى أسلم وقرأ القرآن ، وقد اشتهر بغزله الرقيق وتصويره للطبيعة وما نظمه من موشحات بديعة · ومنهم من تفقه فى الشريعة الاسلامية وتطلع الى القضاء بلا حرج ولا مظنة سوء كما تدل على ذلك رسالة نثرية كتبها الوزير الكاتب أبو المطرف بن الدباغ الى أبى الفضل بن حسداى وكان يهوديا فأسلم يعاتبه ويداعبه · (جعلت فداك ، ما الذى عراك ؟ ولعلك رأيت الحضرة قد خلت من قاض فطمعت فى القضاء ، وجعلت تأخذ نفسك بأهبته ، وتترشح لرتبته ، وأنت الآن لا شك تتفقه فى الأحكام ، وتتطلع شريعة الاسلام · وهبك تحليت بهذا السمت ، وتهيأت لذلك الدست ، ما تصنع فى قصة السبت ؟! دع هذا التخلق !!) ·

يقول محدثنا فى مرارة : كان بضعة أفراد من اليهود يسكنون فى هـذا الشـارع الضيق الذى نسـير فيه الآن بالحى القرطبى العريق ·· قطرات فى محيط عربى · وها أنتـذا ترى اسـمه « جوديوس » أى « حارة اليهود » كما أطلقت عليه البلدية خضوعا للنفوذ الاسرائيلى على حساب الحقائق التاريخية ·

هم على وشك أن يبتلعوا المنطقة كلها ، وأن يخلعوا عليها صبغة علمية ثقافية يهودية ، رغم أن كل حجر فيها يشهد أنها عربية · يتلقفون السائحين بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض قرطبة ، ويمرون بهم فى شارع العلامة العربى أبى القاسم الزهراوى أعظم جراح فى عصره ومن أكبر المؤلفين الذين كانت كتبهم تدرس فى أوربا ، عبر الساحات الأندلسية والبيوت العربية الأنيقة ، زاعمين أنها يهودية ، كما يفعلون الآن فى القدس وفى غيرها من مواقع التراث العربى الفلسطيني تشويها لأصالتها وانتحالا زائفا لها حتى أن مضيفات طيران شركة العال الاسرائيلية يرتدين الزى الفلسطينى · فلم يكن ثمة حارة لليهود فى قرطبة وان كان الأستاذ عبد العزيز سالم مدير المركز الاسلامى الأسبانى قد أثبت ذلك فى كتابه ، وهو خطأ تاريخى · والصهيونيون ينسبون لليهود كل معلم تاريخى أو جغرافى فى المدينة ادعاء منهم أن لهم تراثا فى كل مكان · ومن ذلك أنهم أطلقوا اسم خودرية (امرأة يهودية) على الشارع الموصل الى جامع قرطبة الكبير · وقد كانت منطقة القصبة المسورة والمساكن خارجها تضم جميع السكان مسلمين وهم الأغلبية ومسيحيين ويهودا دون تقسيم ·

أصداء عصرية من قرطبة القديمة (٥)

- **عبق التاريخ يغمر كل ما تقـع عليه العين ويمثله هذا التراث الحي ٠**
- **النموذج الأمثل للحضارة العربية الاسلامية فى العصر الوسيط٠**
- **الآباء يمضغون الحجر والأبناء يضرسون !!**
- **الجيل الجديد فى الأندلس ينظر خلفه فى غضب ٠**
- **« قلبى يحترق كلما شهدت جامع قرطبة فى وضعه الراهن » ٠**
- **حامى حمى قرطبة عاصمة عبد الرحمن الناصر ٠**

كل ما تقع العين عليه هنا عربى اسـلامى ، فقرطبة تحفة التراث الأندلسى ، هذا التراث الحي الذى تلمسه بيدك وتشمه عبر التاريخ حولك ٠ أما فى المشرق فنحن نجهل هذا الواقع ، فنقول : كان لنا آثار ، ولم يبق منه الا كلمة أندلس ، أى بقى لنا الاسم فقط ٠ والأندلس هى النموذج الأمثل للحضارة العربية الاسلامية

فى أوج ازدهارها وفى أقصى ما بلغته فتوحها من آفاق منذ انطلقت موجاتها شرقا وغربا ٠ فقد سيطر العرب على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية ، وأقاموا دويلة على الحدود الفرنسية الألمانية ، والموقف الذى دارت فيه الحرب التى سميت مذبحة بلاط الشهداء « بارتلمى » والتى خسرها العرب واستشهد فيها منهم الآلاف ليس بعيدا جدا عن باريس ٠ ثم توالت هزائمهم بسبب الفرقة وتحالف بعض السلاطين مع ملوك أوربا ضد بعضهم ، وتقاتل أبناء الأسرة الحاكمة ، ومؤامرات القصور ودسائس الحاشية ، ولا سيما فى عصر ملوك الطوائف ، حتى استقل كل حاكم بمدينة ، وتوالى انهيار هذه الممالك المدن واحدة بعد الأخرى ، ولم يبق سوى غرناطة آخر معقل عربى ٠ وما لبثت أن سقطت فى عصر أميرها عبد الله الصغير الذى قال فيه شاعر أندلسى ـ بعد هوانه على العدو وتسليمه أبهى المدن غنيمة باردة ثم بكائه عليها ـ ذلك البيت المشهور :

ابك مثل النســـاء ملكا مضـــاعا

لم تحافظ عليـــه مثل الرجـــال

تتداعى الخواطر لا حزنا على الأمس ، فالماضى لا يعود ، وما كان فى القرون الوسطى يستحيل أن يتكرر ، والذى حدث من حروب هو حلقة من حلقـات الصراع ومرحـلة من التطور التاريخى ، وللأوربيين أوطانهم كمـا للعـرب أوطانهم ، فقـد انتهى عصر الامبراطوريات بانتهاء القرون الوسطى وخلفه عصر القوميات ٠ فلا بكاء على ضياع الأندلس ، بل نستوحيها العبر ، وانما الأسى على المضيع من وطننا ، والذى لن نسترده باجترار أمجاد السلف وبكائيات الأطلال واستدرار الدمع واستجداء الشفقة ، وهذا القول موجه لشعراء الفردوس المفقود الذين هم فى كل واد يهيمون دون أن يروا مواقع أقدامهم التى تغوص تحتهم ٠

أدركتنا الكآبة على أبوابه ، اذ كانت الكلاب تمرح في ساحته مع الأطفال • ولما دخلنا وجدنا أن معظمه قد تحول الى كنيسة ، وأما الجزء الذى نجا من الطمس ، فأبقى على أعمدته ، فلا يصلح لمن يريد الصلاة ، اذ يتجول فيه السائحون بأحذيتهم ، ويلهو الأطفال بالمياه المنبثقة من صنابير الحوض الكبير الذى يتوسط الساحة •

ولكنها الحروب الدينية وما تخلفه من احن وأحقاد تميت أجمل ما فى الانسان من قيم وتثير أبشع الغرائز الوحشية • ويمضى الزمن وتتعاقب الأجيال لترث رواسب البغضاء التى يعمل الأشرار المتعصبون على تأريث رمادها كلما خبت ناره • ولكن هنالك فى نفس الوقت أخيارا متحضرين يقاومون تلك النزعة المعادية ، ويبثون روح الاخاء والتعاون البشرى وتربية الحس الحضارى • ومن ثم نجد اليوم شبابا من الجيل الاسبانى الجديد ينظرون بشىء من الخجل المشوب بالأسى لما صنعته الأيدى الملوثة بدم التخريب ، ويدعو بعضهم الى الحفاظ على مآثر الحضارة العربية بالأندلس باعتبارها تراثا عالميا ، يشهد بعبقرية البشر لا تفريق بين قوم وآخرين ، لأن الحضارة لا يبنيها شعب أو أمة واحدة ، وانما هى ابداع مشترك لكل نصيب منه • وتتصدر منظمة اليونسكو الدولية الهيئات الراعية لهذا التيار ، وهى تعمل على تعميق وعى الأفراد والجماعات وحثهم على تبنى دعوتها الى المحافظة على التراث الانسانى ، وان كانت جهودها غدت اليوم مهددة بالانقراض أو الفناء بعد قرار أغنى دولة فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية بوقف عونها الحالى عنها جزاء وفاقا لها على تمردها ـ فيما أصدرت من قرارات أو توصيات ـ على ربة النعم •

ويحدثنا مدير مركز ابن حزم الثقافى عن الجهد الكبير الذى بذلته بعض الدول العربية فى سبيل اعادة جامع قرطبة الى بعض ما كان عليه من رواء ورونق واعداده للصلاة ، وعن اتصالاته مع أسقف الكاتدرائية (يسمى الجامع الآن فى كتب الأسبان ومنشوراتهم موسكى كاتدرائية) للموافقة على تخصيص منطقة المحراب للصلاة، ذلك لأن هذا الجامع التاريخى الكبير من ممتلكات الكنيسة وان كانت الدولة تحاول نقل ملكيته اليها فى الوقت الحاضر ، وكذلك محاولة استرداد مسجد فرانكو ليقيموا به الصلاة وتلك معلومة أخرى لها دلالتها ومعقباتها .

كل أثر هنا قد أدركته موجة الصراع والحقد ، كأنما كانوا يخشون أن تتلبس أرواح العرب الأندلسيين الراحلين تلك الآثار فترتد فرسانا يحاربونهم من جديد ، فمازالت فى بعض البيوت صحف ومنشورات تحمل شعارات : لا لهؤلاء الراحلين وذريتهم وعقيدتهم ونعم لمن قاتلوهم ، وكأن الانسانية لم تشب بعد عن الطوق، ولم تقطع أشواطا فى سبيل ارساء قواعد التعايش العلمى والحضارى بين أصحاب العقائد المختلفة ، أو كأن العنصرية عنكبوت على كل جدار . « قلبى يحترق كلما شاهدت جامع قرطبة فى وضعه الراهن ولا قدرة لى على فعل ما ينبغى حياله » تلك هى الكلمات التى تفوه بها محدثنا بل صرخته الصادرة من الأعماق كالجرح الدفين .

فى طريقنا شاهدنا تمثالا سامقا بديعا يخلد رفائيل القائد الحربى الذى خلعوا عليه وصف البطل والقديس . واعتبروه حامى حمى قرطبة، ناسجين حوله الأساطير ، فضربة واحدة من سيفه كانت تطيح برقبة ألف من الأعداء فى عاصمة العلم والنور والتسامح الدينى ، مدينة عبد الرحمن الناصر وخلفائه ، مدينة

عباقرة الفكر الانسانى والشعر والحب فى العصر الوسيط . ولم أعرف عمق آهة القلب المحترق حزنا على ما آل مسجد قرطبة حتى ضمتنا ساحته الداخلية . كم كان رائعا ومهيبا مشهد أعمدته الشامخة المتناسقة حتى ليعجز عنها الوصف ، وهى تفجر فى نفوسنا ذلك الحزن الغامض الذى صورته ابنتى منار فى قصتها (الأعمدة) معبرة عن وعى الجيل الجديد بتاريخ الهزائم العربية . وهى تسخر حينا وتأسى حينا آخر للسائح العربى الثرى بطل القصة :

[أوصد مسام أذنيه حتى لا يسمع خطوات حذائه يدب فى ردهات المسجد الكبير فى قرطبة .. اختنقت الكلمات فى حلقه . وهم أن يخنق الكلب الصغير الذى يمرح بين الأعمدة الهائلة .. جحظت مقلتاه .. ابتلع ريقه .. يسرعون فى خطواتهم .. أهى السرعة التى قلبتنا الى الوراء ؟ يدعون الحضارة .. ونحن ؟ غصنا فى أوحال المستنقعات ثم نسيناها كما تأكل السمكة وليدها !!

يركض فلا ينتهى الا الى تماثيل نحاسية .. يخفى عن مخيلته نظراته التى تصدأ أمام غبار وهمى يتصاعد من الكتل الضخمة .. يتذكر فجأة الكعبة يوم حطمت أصنامها .. عبثا يقرأ ما يحاول فهمه على الجدران .. سحقوا الآيات القرآنية .. لم يبقوا لنا سوى حجارة جوفاء تردد أصداء التراتيل الغامضة التى تنبعث فى سياق فتهتز لها خيوط عنكبوت منسوجة فوق رأسه .. الرحمة !! هنا .. آه ، لا أكاد أصدق .

هنا كانت ترتفع الأعناق الى تلك العمامة الحمراء الزاهية التى تغطى عقلا عظيما . تزوغ فى بصره سيقان عارية وأيد متشابكة .. كنا أمة واحدة .. تشابكت أيدينا فى قديم الزمان ..

كنا ·· ثم تسرب كل شيء من بين أصابعنا بكنا ومن أجل كنا ··
لم يبق غيرها فقدسناها ·· فلاش كاميرا يثيره كالبرق ··

يتقدم اليه تمثال العذراء تحمل وليدها ·· نعم وسندعوك الى مدينتنا الجميلة المقدسة على ضفة نهر الأردن ·· وقع على الهواء باسمك ·· وقع بغير اسمك ·· لا بأس ان كنت نسيته ·· فأنت فى طريقك الى السبات العميق ·· نم وانظر الى ·· نم طويلا ·· !! يستلقى بصره فى أحضان الأعمدة الرخامية ·· يرتعد أمام مراياها تتراقص فى كل منها صور له ·· يا الله ·· تتحشرج صرخاته فى خلايا مخه ·· تنهشها الديدان ·· تتجمع حوله أجنحة غربان وهمية مناقيرها خناجر سوداء ·· عروقه تتحول الى أسلاك كهربائية ·· يسيل دمه دموعا لا تجرى ·· يتصبب عرقه رمادا ·· يصدم بأحد الأعمدة وتنقض عليه الأخرى ·· يلوذ بالفرار] ·

فى الزهراء مدينة عبد الرحمن الناصر (٦)
وضاحية قرطبة الملكية

- العين لا تروى من النظر والشجى ·
- واجهة قصر مونق بين خرائب موحشــة ·
- الحارس الأسبانى يرمقنا بنصف عين ·
- بين رمسيس الثــانى وملوك الطوائف ·

مدينة الزهراء أغلى الأطلال وأنكدها حظا · حلم رومانسى حزين وبهيج لا يطاوله خيال شاعر مجنح ، فالعين لا تروى من النظر كما يقول سليمان الحكيم فى نشــيد الانشــاد ، والقلب لا يكف عن الخفقان ··· بين الصخور المتناثرة وبقــايا الأسوار المهدمة فى رقعة شاسعة تمتد على مدى البصر، ويقبع فيها السكون وجلال الماضى كئيبا بعد زهو ، فاجأتنــا واجهة القصر بزخارفها الأنيقة وألوانها الزاهية على الرغم من ركام القرون الذى غشاها·· بدت فى عيون دهشــتنا أجمل من باقــات الزهور الاصطناعيــة

لاحساسنا بنضارتها ٠٠ أعادتنى الى ذكرى زيارة وادى الملوك فى الأقصر غرب النيل (القرنة) لأول مرة ٠

كان ذلك فى الخمسينيات ٠٠ فى ريعان مصر العربية ٠٠ ما أسرع مرور الأيام والليالى وذبول زهرة العمر ٠٠ هنالك فى بطن الجبل أفضى بنا الدرج مع عروس الصبا الى أعجب ما عانقته عيناى من مشاهد الحضارات ٠٠ مقبرة الملك الفرعونى سيتى الأول محفورة فى قلب الصخور الفولاذية على عمق مسافة بعيدة ، زاهية الأصباغ (كأنما نفض الصانع منها اليدين بالأمس نفضا) كما قال شوقى ٠ لن يبرح هذا المنظر مخيلتى ما حييت ٠ انه الاعجاز حين يملك البشر الارادة والقدرة على الابداع فيحققون المستحيل والا فكيف نفسر هذا الواقع الذى تحدى الأساطير والحضارة المعجزة التى تذكرنى بهذا البيت الفريد لعبد الرحمن الشرقاوى :

ان ميـــلاد آدمى ليضنى
أمه، كيف بانبثاق حضاره !!

ومضت بضع سنين على رؤية ذلك المنظر الذى تسكر فيه الأبصار من فرط روعته ٠ ويكفى جمال اللوحة التى تصور آلهة السماء والفلك والكواكب فى سقف الغرفة الأســاسية للمدفن الملكى ، فهى تخرج المشاهد من عالمه وتعرج به الى عالم آخر ٠ وربما لم تتراء لى فى تلك اللحظات النــادرة أشـــباح الحفــارين والبنائين والفنانين وهم يقيمون ويزينون صرحا ممردا ليضم جثمان فرد هالك فى ظل أقسى الظروف وأقل الامكانات ٠ فقد احتوانى الابهار بالجمال العبقرى والبهاء الذى لا يخطر حتى فى الحلم ٠

المنظر الثانى الذى تدخره الذاكرة وقع فى العين فجاءة أيضا بعد ذلك بعقد من الزمن ، فى لحظات الاغفاء واليقظة ، فلم نكد

نبرح الموقع المهيأ لتشييد (السد العالى) جنوب أسوان تغمرنا فرحة الانتماء الى مصر الثورة العربية ودخولها عصر التصنيع ، ومشاهدة المولدات الكهربائية (التوربينات) الضخمة قبل أن يرتفع البناء ، حتى عدنا القهقرى مرة أخرى الى العصر الفرعونى. كنت مع جماعة من رفاق المهنة التى فرضت على بخيرها وشرها فى رحلة نظمها معهد الدراسات العليا لضباط الشرطة مذ كنت من المسئولين عن ادارته وتنظيمه ، لنشهد معجزة تحويل نهر النيل لانشاء السد العالى أعظم منجزات ٢٣ يولية . السد الذى صب علينا الاستعمار ويلاته فى العدوان الثلاثى انتقاما من اصرار مصر على بنائه ، وتأميمها شركة قناة السويس لتمويل هذا البناء من دخلها. وكان البرنامج يتضمن زيارة (معبد أبو سنبل) لرمسيس الثانى بعد الطواف بين معالم مدينة العقاد والسد العالى .

أدركنى الارهاق فى عبورنا النيل من الضفة الشرقية الى الضفة الغربية فى « معدية » تسمى « الهيدلوفريك » خصصت لهذا الغرض . فانتابتنى سنة من النوم . صحوت على صوت ارتطام الباخرة بصخور الشاطىء ، فاذا بى وقد تملكتنى الدهشة مشدود مشدوه بمنظر عجاب خارق على ربوة تواجهنا فوق الهضبة .. تماثيل أربعة ضخمة متماثلة لرمسيس الثانى ، تمثل جبروت الفرعون المسكون بارادة الخلود وتعميق احساس الشعب بانحداره من سلالة الاله آمون، وتسخير التاريخ ليسير فى ركابه. شاهدناها لحسن حظنا قبل أن تنقل الى موقع آخر كى لا تغمرها بحيرة ناصر بعد اقامة السد .

ذروة الابداع فى فن النحت والنقش والتصوير .. مسحت على أجفانى كى أفيق فأتحقق أن ما بين عينى ليس حلما أو خيال ساحر . ولو كنت يقظان ونحن نعبر النيل لتمليت برؤية تلك التماثيل أشباحا من بعيد تتجلى شيئا فشيئا حتى نبلغ موقعها ،

ولما خذتنى دهشة المفاجأة الرائعة . الرؤية أشبه برؤيا المبدع حين ينفصل خلسة عن الناس ويتوحد بالكون كله فى (حالة شعرية) نسميها الالهام ولا ندرك كنهها .

استعدت فى خاطرى المشهدين حين وجدتنى أسير بين الأطلال الأندلسية فتسلمنى على غير توقع الى واجهة قصر الزهراء الأثر الحى المونق بين تلك الخرائب البالية ، كان سكون عميق يلف المكان كله كأن لم يغن بالأمس ، فليس غير الحارس الأسبانى يشغل وحدته بالتفرس فى وجوهنا وخطانا بنظرات طيبة من نصف عين . لابد أنهم لقنوه التقاليد التى تفرضها آداب المهنة ، فلا فرق بين أسبانى وعربى طالما توحد الهدف وهو الاستثمار السياحى . ولن يعود عبد الرحمن الناصر صاحب مدينة الزهراء مرة أخرى فيحارب أو يطالب باستعادة ملكه . كم من معارك دموية شهدتها تلك المدينة منذ بناها ثامن الأمراء الأمويين وأول خلفائهم بالأندلس فى القرن العاشر الميلادى لتكون ضاحية قرطبة الملكية .

تقول بعض المعاجم ان عبد الرحمن الثالث قد بناها تلبية لاشارة جاريته الزهراء فسميت باسمها ، كأنما هذه المعلومة التافهة التى وردت ضمن كلمات قليلة تستحق أن تذكر ، على حين تهمل الدار التى أصدرت المعجم — وهى عربية للأسف — أهم الأحداث التى شهدتها تلك المدينة ، ولا تصف روائع الفن العربى الاسلامى الذى تعد نموذجا مثاليا له . ولكم يشجى العين ما آلت اليه اذ « لم يبق منها غير أوصافها فى كتب التاريخ » كما جاء فى ذلك المعجم دون أن يستثنى واجهة القصر وبهوه ذا الأعمدة التى أفلتت من الدمار . ويكاد أن يعتصر الأسى قلب الانسان العاشق اذ يقارن بين مدينتين من أزهى العواصم فى تاريخ الحضارات الانسانية :

هذه الزهراء العربية الذابلة الا من بقية جمال أخنى عليه الدهر ، وفلورنسا الايطالية منارة عصر النهضة الأوربية ومدينة دانتي وهي مازالت على عهدها كأنما لم يمض على عمرانها أكثر من خمسمائة عام ، ولكنهم أمراؤنا لم يكفهم أنهم كما قال حكيم المعرة :

مل المقـــام فـكم أعاشر أمة
أمرت بغير صـــلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها !!

ولم يكفهم تقاتلهم فى سبيل السلطة ، بل خربوا بيوتهم بأيديهم قبل أيدى أعدائهم · كان الفرعون رمسيس الثانى يبقى على آثار أسلافه وينسبها لنفسه بعد أن يمحو أسماءهم· أما الذين قضوا على الخلفاء الأمويين بالأندلس وهم ملوك الطوائف فكان المنتصر منهم يدمر عاصمة المهزوم ويبتنى له أخرى· « وبعض الشر أهون من بعض » · فقد ازدهرت الزهراء فى عصر عبد الرحمن النـاصر حتى اذا ولى من بعده ابنه الحكم الثانى (المســتنصر) تسلل اليه بالخديعة المنصور بن أبى عامر فجعله كاتبا فى خدمته ، وما لبث المنصور الطموح أن أصبح المسيطر على مقاليد الأمور فى عهد هشام الثانى اذ تولى الحجابة (رئاسة الوزراء) مســتغلا ارتقاء هشام العرش وهو فى الثانية عشرة من عمره ·

وكأنما أراد المنصور أن يسقط مدينة الزهراء من التاريخ ويتناسى أيامه بها تحت امرة الخلفاء الأمويين ، فولى ظهره لها وشيد (مدينة الزاهرة) بالقرب من قرطبة وعلى الوادى الكبير . ونقل اليها النشاط التجارى · فانهارت الزهراء بعد أن كانت فى عهد الحكم الثانى مركزا ثقافيا وحضاريا ·

تأملات عربية بين أطلال رومانية

أبحث عن وجه بلادى وفلسطينى تحت الأضواء المنداحة فى العتمة ·· طى حقيبة هذا الصدر العانى العارى مثل قواربنا المنخوبة تصطرع الأطياف الأشباح · لو كنت تناضل حقا ما أخطأت طريقك يا شاعر عصر مترد بين شباك الوهم ·· مازلت تجاهد كى تستأصل تلك الأعشاب السامة من روحك وبقايا طبقية ·· تتعلق بين الأدنى والأعلى وتكابر أو تستجدى ·· لكن الجسد حطام والقلب عليل ·· فلتحفظ بعض بقاياك لتكتب تجربة النفى والآم العشق النيلى ·· ماذا يجدى مثواك رهين العجز وبيروت تعز عليك ·· فحين طلبت هواها ساومك عليها التجار الساسة ·· فقبعت حسيرا فى وهران أسيرا للجسد المتهدم والرغبات المجهضة للقيا رفقاء الثورة فى بيروت ولقيا الموت العشق دفاعا عن بقيا شرف عربى مثلوم ، أرض مغتصبة ·· أتذكر فى مسراى على ظل فى روما قول ابن عمار بطل الأبطال وراهب محراب الحرية : روما صمدت فى وجه « اتيلا » الهمجى القاتل ·· هزمته وأمام القاعة بيروت وقف السفاح الارهابى حسيرا لم يدخلها ··

عكا هزمت بالأمس جنود الغازى بونابرت ٠٠ عكا بيروت أختان على الدرب الصعب ٠٠ لكن الذئب الصهيونى الأمريكى يقهر قاهرة الكورسيكى ٠٠ وقديما عادت عكا للبطل صلاح الدين من بعـد ثمانين من الأعوام عجاف مزق فيها الشمل ٠٠ وغدا تلتئم الأشلاء وتشرق شمس الشهداء ٠٠ شمس الحرية ويجف الدم ٠٠ أمل مجانى يا شاعر عصر طقوس الخوف وتجارة جثث الأطفال العطشى والأرحام المشقوقة ٠٠ بل رؤيا الواقع والتاريخ الحى ٠٠ الدرب طويل والمعركة الكبرى لم تحسم بعد ٠

أتذكر بين الأطلال الرومانية وجها قمريا منذ سنين ، مولده روما يسكب فى فمى الأشعار وفى قلبى رعشات الحب الحانى القاسى قبل النكبة :

أتت روما بلا حراس

وغير ملامح الأطفال لم نشهد

ونجم فوقنـا يولد

تعالى ٠٠ ذابت الأسوار

ومال الورد تحت ظلال خديك

وغاب الليل والأسرار

وما عادت بنـا الذكرى

الى أيامى المنزوفة الأشواق

فـــوق النيـــل

وأصداء من الترتيـل

تبث حنينى الجواب للقرية

وتخلع عن مدينتنـا
قنـاع الزيف ..

لكن النافورات الصداحة فوق الساحات الرومانية تتفجر في عيني طيوف دماء للأطفال الصرعى في أرض الأرز ، وفي ضفتنا الشامخة الصامدة الغربية تضرب بالسيقان المتطايرة المبتورة للنابلسي الأسطورة بسام الشكعة ، وتناديني غزة عبر الأجراس الأصداء فأذكر دقات قطار مصري يحملنا قبل هزيمتنا للبيارات الخضر ، واليوم يحلب دمها للسياح العرب وأنصار يهوذا في روما ، وينـوح المتنـبي وأبو تمام يصرخ في حنجـرة أمرأة عربيـة « وامعتصماه » فتجاوبه الأصداء من الاطلال المنثورة في «الكولليزم» الشاهق بين ظلال العدمية .. كل الطرق تؤدي بالسارين الى روما ، لكن طريقي موصدة والأقدام الهمجية فوق جماجمنا .. ينبعث صفير حمائم جائمة بين الأسوار .. أتراهـا تنتفض كما ينطلق الفينيق من الأكفان جناحين من النار ورمادا مشتعلا ، أم نتحول نحن العرب عمالقة الأمس أساوى اليوم الى ذكرى مثل هنود حمر في محرقة اليانكي أو مصيدة الكاوبوى ..

تمثال الحرية مازال يدنس وجه الحرية .. فمتى يغدو مثل الكولليزم رجاما وحطاما ؟ أو يتحول في متحف تاريخ الانسانية رمزا للافك وأعداء البشريـة ؟ ومتى يتبعـه الأنصـار المبهورون بأحذية طغاة العصر وجلادي الشرفاء ؟

« دانتي » يتفرس في وجهي .. يسألني : « عربي أنت ؟ أمن دم رجل الهمني « الفردوس » .. فكيف تزور « فلورنسا » قبل مزارك محبسه في الشام ؟ » يتصبب قلبي عرقا .. واخجلي حين يلاقيني يوما ويطاردني قوله :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

انى أخاف عليكمو أن تلتقوا

أسند رأسى كالهائم فوق جدار الشاعر .. لا يفتح لى بابه .. يرمقنى التمثال النصفى المستشرق ساحته بين كنيسته والدار الموصدة على الأسرار .. تتخايل أمامى أشباح « الجحيم » و « المطهر » .. أردد أبياتا قديمة كتبتها قبل الطوفان :

صديقتى لم يعد الرومان .

وأقبلت .. عادت « بياتريس »

غريبة مبهورة كالحب

تطير فى المدائن المعلقة

تنساب فى ساحاتها منطلقة

تبحث عن عش لها .. عن قلب

« بياتريس » حبيبة دانتى الليجيرى وملهمته تخطئها العينان فى المكان ، ولا أذكر الا شيخنا الجليل أبا العلاء المعرى ملهم الشاعر الايطالى الخالد فتختفى أشعارى ويهزنى من البعيد صوته العميق القوى :

مل المقام فكم أعاشر امة

أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها

وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

وأغادر فلورنسا « أثينة ايطاليا » كما يسمونها وفي الحلق غصة ٠٠ فلماذا كتبنا نحن العرب على أنفسنا ذلك القدر الكئيب ؟ لماذا يصدق فينا حتى اليوم ما قاله المعرى منذ ألف عام ، والقوم هنا فى سباق حضارى وفى صراع لتحقيق العدل الاجتماعى لا يهدأ ، والشعوب تنعم بشيء من الديمقراطية لا نظفر نحن بمعشاره ؟

وفى طريق عودتى فتحت ديوان عبد الرحمن صدقى ، الذى رافقنى فى رحلتى وقد ضم قصائده فى روما وفلورنسا وجنوا ونابلى والبندقية ، تلك المدن الايطالية التى تنتمى اليها زوجته التى استلهمها هذا الديوان الشجى « من وحى المرأة » بعد رحيلها عن هذه الحياة ٠ وغمغمت أردد أبياته التى يخاطب بها روما المدينة الخالدة كما وصفها :

وردتك مشتاقا الى الفن ظامئا
وعدت على شوقى بنغبة طائر
سجلك مسجور وفنك باذخ
عميق فما توفيك زورة زائر
أرانى على الأطلال أطول وقفة
وأمعن تسريحا لفكرى وناظرى
أراعى الى قدس المعابد اصبحت
مدارج أقدام ومجرى حوافر
وأربابها صرعى التماثيل ضيع

وكانت ترجي في الخطوب الكبائر
واحنو على اى الجمال تناثرت
حصى او بقايا فى ضمان الجمائر
رسومك يا روما القديمة عبرة
لارمل ملتاع الجوانــح عابر
تاسيت يا روما ولو بعض ساعة
فلست على رغم الهوى بمكابر

يوم طرقت باب « دانتى » ·· فى فلورنسا

قد يهون العمر الا ساعة ، وتهون الأرض الا موضعا ، هكذا يقول شوقى · وقد يكون هذا المكان هو الأرض التى تحتضن الوطن وتقربها عيوننا فى الصباحات والمساءات ، ونحن اليها كلما غابت أو غبنا عنها ، أو يكون رقعة عزيزة من هذه الأرض أو هذا الوطن مثل مسقط الرأس ، أو بيت المحبوب الحاضر أو الغائب ، أو مدينة لها تاريخها النضالى الذى يشدنا اليها مثل بورسعيد والسويس ، أولها تاريخها الحضارى وملامحها الباهرة وروحها الساحرة مثل الاسكندرية ·

كما قد يكون هذا المكان قرية أو مدينة جميلة بعيدة لاتنتمى اليها وقد لاتستطيع اليها سبيلا ، لكنك زرتها مرة فى ساعة صفو جاد بها عليك القدر ، فعاشت منذئذ فى وجدانك ، وما هانت عليك برغم تقلب الأيام والليالى بها أوبك ، وتراكم الأحداث الحلوة والمرة ، وضمور خلايا الذاكرة تحت عبء الزمن الذى يمضى علينا

ثم يمضي بنا ، أو تحت وقع تلك الأحداث اذا كانت جهمة كوجـــه الخريف ٠

أثارت تلك التأملات فى خاطرى ذكرى من فلورنسا ، تلك المدينة الايطالية التى لم أكن بقادر على الاحتفاظ بها فى صندوق مخيلتى لولا أنهـــا مدينة (دانتى اليـــارى Dante Aligierte) (١٢٦٥ ــ ١٣٢١) أعظم شعراء ايطاليا الذى خلد اسمه فى الأدب العالمى بملحمته « الكوميديا الالهية » ، وقد وصف بها طبقات الجحيم والمطهر والفردوس ، فى سفرة خيالية قام بها وكان رائده الشاعر اللاتينى « فرجيلوس » وحبيبته « بياتريس » ٠

ولا أكاد اليوم أصدق أننى طفت بهذه المدينـــة التى تشبه الأساطير ، مع أسرتى الصغيرة ، ذات يوم من صيف ليس كمثله صيف فى بهائه ونضرة بساتينه لولا أننـــا مازلنا نحتفظ بصور تذكارية التقطناها هناك ، ونحن نمشى فى شوارعها التى أبقى أهلها على بلاطها المرصوف منذ العصور الوسطى تدق عليه حوافر الجياد التى تجر المركبات الكرنفالية ، وهى توقع لحنها على صوت الحوذى الجهير المتدفق كعادة الطليان ، وكأنه يريد اذ يرفع عقيرته أن يمتعنا بغنائه الأوبرالى فيما يظن أو يطرب حصانه ويحثه على المسير ٠

استوقفته قليلا حينما وصلنا الى منزل « دانتى » الذى دلنا عليه ٠٠ قرأت اسمه وطرقت بابه ، لم يجبنى أحد فى الداخـــل ٠ وددت لو كان هناك حارس فيسمح لنا بالتجول فى البيت ٠ لكننى أحسست بروح الشاعر العبقرى تطل علينـــا من احـــدى النوافذ وتستضيفنا هنيهـــة كى نتنفس العبير الذى يشـــيع فى المكان ونأنس اليها ٠

ها هى ذى فلورنسا ، والمدن مثل الأشخاص تألفها أو تنفر منها منذ أول لقاء ، والجميلات منها كالنساء « كل مليحة بمذاق » كما يقول أمير الشعراء ·· وتأسرك مدينة (دانتى) بعبقها التاريخى فقد كانت عروس المدن الأوروبية وعاصمتها الحضارية فى العصر الوسيط ·· مدينة مجلوة ساحرة كأنها أفروديت ربة الاغريق التى ولدت من الموج ، واعتادت أن تقبله وتغتسل به كل صباح تحت أشعة الشمس ونسمات الخمائل وعطر الورود ·

ويل للشجى من الخلى

أينما تولى وجهك تبهرك أفانين المبانى والصروح والأعمدة ذات العقود المزخرفة ، والتماثيل التى أبدع صنعها المثالون فى عصر النهضة ، ومازالت محتفظة بطابعها ورونقها « كأنما نفض الصانع منها اليدين بالأمس نفضا » · ويكاد الدمع يطفر من عينيك حزنا حين تقارن بين تلك المبانى البديعة وبين ما آلت اليه — فى مصر التى كانت أم الدنيا — عمارات الخديوى اسماعيل ذات الطابع الفرنسى الأنيق الدال على افتتانه بالذوق الأوربى ، والبيوت ذات الطراز الأندلسى الفريد فى حى مصر الجديدة الذى أنشأه البارون البلجيكى « امبان » وقصر المسافر خانة آخر الضحايا ··

تشعر بالأسى والحسرة لما حاق بتلك المبانى والمساكن ، اذ يجرى هدمها منذ عصر الانفتاح الميمون واحدة تلو الأخرى ، وبناء أبراج أسمنتية على أطلالها تفتقد أية مسحة جمالية ، لتغل ملايين الجنيهات للمستغلين الفجار المتاجرين بأزمة الاسكان · وليست المقارنة بين هنا وهناك ترفا فى القول ، بل اشارة الى تسلل أفراد وجماعات تحمل جرثومة اللهاث وراء الربح العاجل الوفير ولاتتوارع ضمائرها — اذا ما كانت لها ضمائر — عن الانغماس

فى رذيلة الكسب الحرام وهى تشيد بنيانها بالأسمنت المغشوش ، وعن استفزاز المواطنين الشرفاء الكادحين ، والعبث بنسيج الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعى ، بنشوء طبقة جديدة مثل طبقة أثرياء الحرب • وتلك ظاهرة تكاد تتحول الى وباء كاسح لاراد له من أساطين أو شياطين مجالس المدن والقائمين على الادارة المحلية الا قليلا منهم ، وويل للشجى من الخلى •

حوار مع صاحب الكوميديا الالهية

تتداعى الذكريات فأجدنى على باب « دانتى » كما تشهد الصورة الفوتوغرافية ، لكن وقفتى لاتشبه وقفات أجدادنا الشعراء على الآثار الباقية من ديار حبيباتهم ، فدار شاعر فلورنسا مونقة • وها هو ذا يخلع عنه ثوب الفناء ويرتد حيا ، ويدور حديث بيننا والحديث ذو شجون •

● أنت مفكر تبحث عن الحقيقة ، ونحن فى الشرق نقول ان الحقيقة ضالة المؤمن • لذلك أسالك عن رأيك فى قضية اختلف فيها الباحثون بعدك ، وهى تأثرك بشاعرنا الكبير « أبى العلاء المعرى » فى « رسالة الغفران » التى طاف فيها من قبلك بثلاثة قرون بالجنة والنار ، فوضع من شاء من الشعراء قبل الاسلام فى قائمة المغضوب عليهم أصحاب السعير ، ووضع آخرين ممن رضى عنهم فى جنات النعيم • أتراك كنت مقلدا له فى ملحمتك ؟ أم كان ذلك من قبيل وقع الحافر على الحافر كما يقول نقادنا العرب القدامى ؟ ولقد أقام الحجة على تأثرك بالمعرى بعض الباحثين من المستشرقين والمستعمريين وخالفهم آخرون •

●● لا أنكر أننى قرأت « رسالة الغفران » فى ترجمتها الى اللاتينية ، وربما اختزنت بعض مشاهدها فى ذاكرتى ، فتأثرت

بها فى ملحمتى دون قصد الى تقليدها ، فانا وشاعركم ، بل شاعر الانسانية الحكيم ، كنا نحلق فى أفق واحد وهو مسألة الثـــواب والعقاب ٠ والتشابه بين رسالته وملحمتى انما يكمن فى الاطار ، لكن لكل منا أسلوبه ورؤيته ٠

● دعنى اعبر عن أسفنا وضيقنا ــ نحن أبنـــاء الحضـــارة العربية والاسلام ــ بمفهومه الانسانى التقدمى ــ اذ أقحمت ذكـــر محمد عليه السلام فى ملحمتك وحشرته فى زمرة الأشرار أصحاب الجحيم !! كيف انحدرت الى هذه الهـــوة وأنت من أنت فى فكره الناضج بالحكمة والمصور للمعانى والقيم الانسانية ؟ ولقد نقلنا الى لغتنا أعمالك الأدبية بوصفها من الآثار الفنية الخالدة كما ترجمنا من قبل أدبيات آبائكم وأجدادكم الاغريق دونما نظر الى الاخت[illegible] فى الدين أو الجنس والثقافة ٠ اتسع أفقنا ليشمل العـــالم كله ايمانا منا بوحدة البشرية ودور المعرفة فى التقاء الانسان بالانسان وتذويب الفوارق بين الشعوب ٠

وكان رأينا ولايزال أن الأدباء والفلاسفة يصلحون ما يفسـده السياســـيون ٠ فكيف اختلط عليك الأمر وجنحت الى ســـوء القصـــد ؟!

●● لم أندم بعد رحيلى من الدنيا على كلمة خطهـا قلمى مثل ندمى على مقولتى عن نبيكم محمد ، ولكن عذرى ــ وأرجـــو أن تتقبله ــ أننى ولدت ونشأت فى العصور الوسطى التى استشرى فيها داء التعصب ومعاداة المسلمين ، ولم ينج أحد من هذا الداء الوبيل بسبب الصراع العقائدى بين الشرق والغرب ، وتحول هذا الصراع التراجيدى الى ما عرف بالحروب الصليبية وهى من أبشع الجرائم فى تاريخ البشرية ٠

ولو تأخر بى الزمن وجئت فى القرن العشرين لأنصفت صناع الحضارة من العرب والمسلمين ، وفى طليعتهم أبو حنيفة النعمان ، وابن رشد الداعية الى اعمال العقل ، والثائر العظيم جمال الدين الأفغانى ، والشيخ محمد عبده المصلح المجدد، وطه حسين، وهيكل، والعقاد وغيرهم من رواد التنوير ، ولكنت من المنادين بالأخوة بين البشر وبين الديانات جميعا ودعاة حقوق الانسان .

لكن القرن العشرين حـــان ولم تتطهر أوروبا من جحيمها ، بل أضافت الى التعصب الدينى جريمة لاتقل عنه بشاعة واهدارا للتراث الانسانى، وهى الفاشية التى دمرت فى بضع سنين ما بناه البشر فى عدة قرون . وعلى حين كانت الكشوف الجغرافية والعلمية تفسح الطريق للقضاء على خرافات العصور الوسطى والتقدم نحو عالم أفضل ، عالم أوحد لايستغل فيه الانسان ولا يستعبد ، استغلت أوروبا هذه الفتوحات فى استعمار آسيا وافريقيا ونزح ثرواتهما وتقويض حضاراتهما ، بدعوى تمدينهما على يد الرجـــل الأبيض مبعوث العناية الالهية الى البشرية !!

لكن العدالة الالهية شاءت أن يصطدم النظام الاستعمارى لانجلترا وفرنسا والدول الدائرة فى فلكهما بنظام رأسمالية الدولة ورغبة هتلر وموسولينى فى اقتسام المستعمرات ، فاحترقت أوروبا وامتدت ألسنة النار الى أوطان شعوبنا المغلوبة على أمرها ، وساقها المستعمرون كالقطعان لتكون وقودا لحرب لاناقة لها فيها ولا جمل ولسان حالها يقول :

لم أكن من جناتها علم الله وانى بحرها اليوم صالى .

●● لوعدت الى الحياة مرة أخرى وشهدت أهوال الحربين الكونيتين الأولى والثانية ، وجنايتهما على كل ما هو جميل ونبيل

وجليل فى الكرة الأرضية ، لوضعت السفاحين أعداء الانسان جميعا فى أشد طبقات الجحيم ظلاما ، بدءا من الفوهرر المأفون السفاك ، وصاحبه خليفة نيرون الأفاق والأشر ، حتى أوجيستو بينوشـــيه طاغية تشيلى الذى تطالب جمعيات حقوق الانسان وأبناء ضحاياه الآن بتقديمه الى المحاكمة ، باعتباره مجرم حرب لاتقل جرائمه عن جرائم النازيين الذين أدانتهم محاكم نورنبرج ، وان كان قضاتها الأمريكيون بالأمس يكيلون اليوم بمكيالين ، فيغمضون عيونهم عن الأيدى الملطخة بالدم ويعاقبون الأبرياء ٠

● ربما يشفع لك عن خطئك فى حق أحد أعظم بناة الحضارة ودعاة التسامح ما أضفت الى التراث الانســـانى من روائع أدبية أسهمت فى تنمية الحس الجمالى والمشاعر الانسانية المشتركة ٠ لكن دعنى أوجه اليك سؤالا آخـــر وأنت فى عالم جلاء البصــيرة والتطهر من أدران الغرائز ٠ وقبل أن نفترق ، ألا ترى أن الغرب الآن ــ بعد ما بلغه الانسان الحديث من رشد ومعرفة حتى هبط على القمر عبر السفن الفضائية ، وأصبح العالم مثل قرية صغيرة الكترونية بعد ثورة وسائل الانتقال والاتصال ــ مازال يحمل فى أحشائه البذور الســامة من رواســـب النزعة الصليبية والتفرقة العنصرية ؟ ويكفى أن أذكر لك اسم واحد من الفاشيين الجدد تظلله سماء باريس عاصمة النور ، وهو « جان لوبان » الذى يحرض الفرنسيين تحت سمع العالم وبصره على اغتيال أو طرد أبناء المغرب العربى العاملين فى فرنسا ، والذين أسهم آباؤهم فى اعادة تعمير المدن الأوربية بعد تخريبهـــا فى الحربين العالميتين ٠ وفى بلجيكا أضرم المتطرفون اليمينيون فى بيوت تســكنها أسر تركيــــة لاذنب لأطفالها ونسائها حتى يحرقوا أحياء ٠

●● وأسفا أن يغتال القبح الجمال ، والوحشية البراءة ، والجحيم الفردوس ·· لو عشت عصركم لتبرأت ممن شوهوا وجه أوربا ، واستبدلوا بالفضيلة البيضاء الحقد الأصفر المسموم والطغيان المحموم ·

● أتعلم أن تجار الحروب فى الغـــرب ولاسيما فى أمريكا يشعلون الفتن ــ عبر أجهزة المخابرات ــ بين دول العالم الثالث ــ طبقا للتسمية الشائعة الظالمة ــ ويوهمون حكوماتها وشعوبها أن جيرانها لها بالمرصاد ، كى يستنزفوا ثرواتها النفطية وغير النفطية عن طريق عقد صفقات التسليح معهـــا ، لا بالملايين من الدولارات بل بالبـلايين ، مع أن العـــدو الحقيقى المتربص بهذه الدول هو الصهيونية والشركات الاحتكارية المتعددة الجنسية ، وهو الفاقة والقهر والخرافة التى غذاها الاستعمار القديم والحديث ، وزادتها الحروب الأهلية الآن تفاقما حتى يكاد أن يتحول هذا الداء الى مصدر ابادة للجنس الافريقى ، وخاصة أن منازعات الحدود التى وضعها الاستعمار لاتنتهى ·

●● انه الصراع بين النقائض منذ أقدم العصور ، والتاريخ يعيد نفسه وان كان ذلك بأشكال وأساليب جديدة لتفق مع كل مرحلة · لقد تطورت الانسانية بالعـلم والعمـــل ، وحققت منافع لم يكن أكثر الناس تفاؤلا يحلم بها · وأعلم ان ما تحقق من مخترعات فى زمانكم ، أعنى نصف القرن الأخير ، أكثر مما تم خلال آلاف السنين · وهاهم العلماء يحاولون غزو المريخ بعد غزو القمر · ولكن المفارقة المثيرة للألم أن ركام الغرائز الوحشية مازال ــ كما قلت ــ مسيطرا ، والعلم يســـتخدم للقتل الصريح أو الخفى ، والعقـل للتضليل وهو الذى قال فيه شاعركم أبو العلاء « لا امام سوى العلم مشيرا فى صبحه والمساء » ·

واختفى عن ناظرى صاحب الكوميديا الالهية ٠ وكان آخـــر ما سمعت منه قوله : أيها المثقفون ، يا دعاة التنوير والديمقراطية والعدل ، رسالتكم يا طلائع الشعوب أن تبثوا الوعى بالحقائق فى نفوس أجيالكم الجديدة ، وترشدوا الحاكمين للعمل بما نصحهم به صاحب رسالة الغفران ، حتى لا تلقفكم معهم دوامة الافك ، وتقعوا فى حبائل الأفاقين وشذاذ الآفاق :

مـــل المقــــام فكم اعاشر امة
امــرت بغير صلاحهـــــا أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
وعدوا مصالحهـــا وهم أجراؤها

وتداعت الذكريات
من فلورنسا الى الجمالية

★ الجمالية والروائيون الجبروتيون ٠

★ الحلقة المفقودة فى مصادر الالهام ٠

حين مررت على بيت دانتى فى مدينة فلورنسا التى يسمونها أثينة ايطاليا ويسميها شـــاعرها دانتى لؤلؤة المدن ، غلب الحزن لما آلت اليه مدننا العربية القديمة وآثار الراحلين العظام من أسلافنا على بهجتى بزيارة مهبط وحى صاحب الكوميديا الالهية ، وارتياد مدينة الحرية التى ولدت فيها حضـــارة عصر النهضـــة ، وأنجبت « ميكيل انجيلو » الذى هوى بازميله على تمثال موسى بعد أن أكمل صنيعه لأنه استنطقه فلم ينطق ٠ مدينة أثرية كاملة كأنما نفض الصانع منها اليدين بالأمس نفضا كما يقول شوقى ، رغم مرور أكثر من خمسمائة عام على بيوتها وكنائسها وجسورها وتماثيلها ونوافيرها وقبابها وأبراجها ٠ كنيسة عاشق بياترس مازالت مثل دار ابن لقمان بالمنصورة على حالها بلا قيد ولا صبيح الطواشى ٠٠ وعن روعة

الحياة وعبير الخلود لا تحكى فلورنسا فقط بل تغنى · وهى لم تتوقف عن الحياة والغناء لأن أهلهـا هم أصـدق عشاقها وأبهى مريديها وأنبل فرسانها وشعرائها ·

رجعت بى ازقة فلورنسا الى موطنى الحبيب ·· مدينتى البعيدة القريبة ·· مدينة الألف مئذنة والألف عام · حين غادرتهـا منذ سنوات كانت القاهرة المعزية كأنها تريد أن تنقض ولا تجد العبد الصالح معلم موسى ليقيمها · كانت تحتضر فى بطء تحت وطأة أقدام الزمن الراجفة وأيدينا الكليلة المغلولة وعليها مسحة من جمال فائق قديم · تشكو فى صمت وانكسار ظلم ذوى القربى · أرفع وأروع ماشيد فى عصر الفاطميين والمماليك والعثمانيين أصبح أثرا بعد عين ، ولماذا لانجهر بالحقيقة رغم مرارتها فنقول أصبح مباءة للقمامة بل أبشع من هذا ·· أبواب القاهرة العتيقة : باب زويلة ، باب النصر ، باب الفتوح ، باب المتولى تدعو شعراء الأطلال ليبكوها أو تدعونا لنمد اليها يد الغوث ·· والجمالية فلورنسة مصر القديمة يتهافت عليها الروائيون الجبرتيون ليصووروها فتتحول روحها الى ورق ومداد ويخذلها الحكام ، الحكام بأمرهم دائما·· فلا تسمع اليوم فى دروبها المتعرجة الا « دولار دولار ، صرف صرف » بعد أن كانت تصيح بأصوات المطارق كالاجراس على النحاس ، وهتافات الحرفيين الشعبيين الصغار من احباب الحياة وعشاق الكدح اليومى الصابرين·

يمشى فيها الغرباء والطفيليون اليوم والباحثون عن الكسب الحرام السريع ، ويتوارى تحت خرائبها الانسان الحقيقى صاحب الديار بالعرق والدم والدموع آلاف السنين ، وتتلاشى ضـحكات هاتيك البلهاء التى طالما جلجلت، والنوادر الرمضانية تحت الفوانيس المضيئة فى أيدى الأطفال وتحت الأسقف التى تتظلل الأسواق ، مجموعات من الآثار يندر أن يوجد لها مثيل فى أى عاصمة مباحة

لعوامل التعرية ونهب لكل من هب ودب · لم يبق من بيوت القاهرة القديمة غير قاعة محب الدين فى بيت القاضى ، وقاعة الامير بشتاك فى شارع المعز لدين الله ، ومنزل السنارى بالسيدة زينب ، تراث معمارى وفنى وثقافى يقدم صورة صادقة للحياة فى المجتمع المصرى خلال القرون الماضية · معظم ما وصل الينا يرجع الى العصر العثمانى ويشكل كل أثر منه وحدة فنية واجتماعية مميزة ·

لم يصلنا للأسف بيت قاهرى من عصر السلطنة المملوكية عندما كانت مصر مركزا لامبراطورية شاسعة تحمى الحرمين ، وتذود عن البحرية ، وتبسط سلطانها على قبرص حتى أطراف الأناضول · لقد اندثرت قصور الأمير آزبك ، وقوصون ، وبشتاك وطومانباى · وغيرهم من كبار أمراء المماليك الذين لمعت أسـماؤهم فى سـماء التاريخ المصرى ، حتى قصر محمد بك الألفى الذى اتخذه نابليون مقرا له خلال الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨) تهدم وبنى مكانه فندق شبرد الذى احترق عام١٩٥٢ قبيل ثورة ٢٣ يوليو، ولم يبق منه الا أرض خالية ، وشارع يحمل اسم صاحب القصر · وكذلك قصور مراد بك وابراهيم بك آخر الأمراء المماليك الذين عاشوا فى العصر العثمانى وأدركوا عصر محمد على حتى قضى عليهم فى مذبحة القلعة المشهورة ولم ينج منهم غير مراد بك · كلها تزايلت وما بقى غير بعض الدور التى بناها أبناء الطبقة الوسطى · أما الشعب الذى كان يسكن وحدات سكنية ضخمة يطلق عليها الربوع ، فلم يبق من بيوته شىء · وهكذا فقد المؤرخون والعلماء كنزا ثمينا بفقد هذا التراث من آثار نهاية العصور الوسطى بمصر فى عهد المماليك ·

روائع الفن المعمارى التى خلفها العثمانيون تتجلى فى قصر المسافر خانة وبيت السحيمى وبيت الكريدلية وتوجد فى المسافر خانة أضخم « مشربية » وصلت الينا · واسم مشربية مشتق من

الفعل « شرب » ثم أطلق على النوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبية المتشابكة ، لأن القلل الفخارية كانت توضع عليها لتبريد المياه بمرور الهواء . وفي معظم الأحيان نجد رفا صغيرا يبرز الى الخارج ترص عليه هذه الأواني ، وفي قصر المسافر خانة رفوف أخـــرى رخامية تتخللها فجوات مستديرة توضع فيها الآنية للتبريد ويطلق عليها « مزيرة » . وللمشربيه غرض اخر هو حجب الواقف خلفها عن عيـــون المارة بالطريق ، محققة بذلك متعتين ، فهى مكان رطب يسمح بدخول الهواء ، وهى بمثابة شرفة تمكن النساء القابعات فى الطابق الأعلى للبيت المسمى الحرملك من متابعة كل ما يجرى داخل البيت دون أن يراهن أحد من الضيوف أو الغرباء الجالسين فى السلاملك بالطابق الأسفل . وهذه المشربيات التي تطـــل على الفناء الداخلى أو الحديقة أجمل من تلك التى تستشرف الطريق ، وقد ركبت فيها نوافذ صغيرة يمكن رفعهـــا الى أعلى فى مجـــار صغيرة محفورة فى الخشب اذا رغب أصحابها في ذلك ، وكثيرا ما تنظر منها نساء القصر الجميلات بحجة الشراء من الباعة المتجولين ، وليستعرضن جمالهن فى الوقت نفسه .

وتتوسط حديقة المنزل نافورة مرصعة بالرخام الملون ، وتقبع فى أقصى الفناء بئر للمياه . وينفرد قصر المسافر خانة بأغـــرب وأطرف ما وصل الينا من الفن المعمارى للبيوت القديمة . انه الجزء المخصص للطاحون التى كانت تطحن الغلال ويديرها ثور . وهو عبارة عن طريق ممهد يصعد فى شكل حلزونى بدون درجات لتسهيل صعود الثور الى أعلى . وكانت الطاحون ترفع الماء من أسفل أيضا . ويحتوى القصر على حمامين ، أحدهما صيفى لاتستعمل فيه الا المياه الباردة ، والآخر شتوى يتم تسخين الماء فيه بطريقة معقدة .

حتى أوائل الستينات كان سكان حارة الطبلاوى فى الجمالية، وسكان قصر الشوق الذى أطلق نجيب محفوظ اسمه على جزء من

ثلاثيته ، كانوا ينسجون القصص الخيالية حول بيت المسافر خانه ، هذا البيت القديم المهجور • فثمة من يقول ان العفاريت تسكنه ، وآخر يقول انه مأوى لأمنا الغولة • كان الناس يتجنبون دخوله ، والأطفال يعدون كلما بدا لهـــم من بعيد • وظل الأمر كذلك حتى امتدت اليه يد العنـــاية والترميم ثم خصصته وزارة الثقافة لسكن الفنانين • عندئذ دبت الروح فيه ، واعتاد أهل الحى رؤية الأجانب والغرباء وهم يسعون اليه •

تتماوج جـــداول التذكار ويضيق المجـال اذ ترد على الخاطر صورة بيت السحيمى وبيت السنارى بعد قصر المسافر خانه والآثار الفنية الجميلة التى أفلتت من الضياع ، ولم تستوحها الا قليل من الأعمال الأدبية التى تبقى بعد اندثار تلك الآثار ، فتخلد روحهـــا أو تنفسخ فى رمادها فنحسها بالوهم أو الحلم عبقا من تاريخنـــا كالزهور الخريفية • واذا كانت الرواية قد نسجت بعض الخيوط من القاهرة المعزية كما نجدها عند نجيب محفوظ الذى بدأ أعماله مستوحيا التاريخ الفرعونى وذلك فى « كفاح طيبة » ، فان القصيدة لم توظف القـــاهرة المعزية فى حين التفت بعض الشعراء الى مصر الفرعونية مثل أحمد فتحى فى قصيدته » الكرنك » ، والبعض الآخر الى المجد العربى فى عصر الجاهلية وفى العصر الاسلامى • وهنالك مسرحية شعرية مغمورة كتبها الأديب الراحل محمد محمود زيتون بعنوان « على أبواب الاسكندرية » يؤرخ فيها فنيا للفتح الاسلامى لمصر • وكتب « جورجى زيدان » قصصا عديدة مثل « العباسة » وغيرها أعاد فيها صياغة الأحداث وضمنها رؤيته التى تختلف فيها معه ، اذ شابها تشويه يصل الى المسخ فى بعض الأحيان • ولكن كفاه فضل السبق الى تطعيم فن المقامات فى القصص العربى بنسم جديد • ومن هذا النبع استقى من بعده على أحمد باكثير ومحمد فريد أبو حديد رواياتهما التاريخيةالتى تختلف شكلا ومضمونا عن أعمال

جورجي زيدان ، والتي وضعا في بعضها المحاولة الأولى لصـــياغة الشعر الحر ، ولاسيما ما ترجمه الثاني من مسرحيات شكسبير .

وتبقى القاهرة مدينة الألف عام تحت الظلال الشاحبة التي تخيم على الجمالية والأزهر والسيدة زينب وباب الخلق ، وأودعها وأنا أهمس بأبيات من وحي حنيني الى مدينة الاسكندرية حين كنت في مدينة وهران بالجزائر :

أغنيــة لــم تتم
وصـــبابة من رحيق مصفى
ولكن قلبي طريـــد
وأنت بعيد بعيد
وحيــــــد

في مدينة الدخان والدمى

رغم فشل محاولاتي المستميتة أكثر من مرة للدخول الى الجنة التى كانت تعنى بالنسبة لى فى هذا الوقت البعيد الخروج من الكهف الوظيفى فترة ولو قصيرة والانطلاق الى العـــالم ، ورغم النصيحة الغالية التى قدمها الى الرجل المرموق « م ٠ س » بحكم درايتــه الواسعة بخفايا الأمور ، فان الاحباط لم يصبنى قط ٠ كنت حينذاك مثاليا طموحا الى غير حد ، مغرما بانتزاع حقى حتى المعاناة المريرة ، أواصل الليل بالفجر أملا فى تجاوز شريحتى الاجتماعية فى القاع ، والوصول الى سطح الأرض الصلبة بتكسير القيود بالأظافر فى عالم الأنياب الشرسة الخفية ، عالم الليث الذى لايبتسم وان رأيت نيوبه بارزة كما صوره المتنبى منذ ألف عام وأكثر ٠

لذلك لم أصدق الناصح الأمين المهيب وكان ظنى أنه يريد أن يدخر لنفسه ــ اذ كنت أعمل تحت رئاسته ــ ما أبذله من جهــود فى الاعداد للمسابقة العلمية التى كانت تعقدها الوزارة للفوز باحدى البعثات أو المنح الدراسية للتدريب فى الخارج ٠

والحق أننى لم أكن سيئا جدا فى سوء ظنى ، ولا كان سوء الظن هذا عصمة أبتغيها ، فالخيبة كانت دائما من نصيبى ، لأننى لم أكن أحسن « اللعبة » بل ولا أعرف حتى قواعدها البدائية ٠٠ كان الارهاق هو علاقتى الوحيدة معه ، فلولاه لما شرفت بالعمل الى جانبـــه واقترن اسمى باســـمه على صفحات مجـــلة الوزارة ٠

مازلت أذكر عباراته المغلفة بالتعالى الى حـــد الاســتخفاف والسخرية : عبثا تضـــيع الوقت ٠٠ لن تقهر المستحيـــل ٠٠ هذه المسابقات كلها « كوموفلاش » نتائجها معروفة سلفا وأنت لست من الموعودين ٠٠

التفاصيل لاتهم حين تحدث المفاجأة ٠ هكذا وجدتنى ذات يوم فى رحلة ليلية أركب فيها الطائرة عبر الأطلنطى ٠ بالصبر المعروف عن أيوب المصرى والفلاح الفصيح والشـــاطر حسن انتقلت عابر فضاء ـ كما قال لى صديق ـ من حوارى الترعة البولاقية فى حينـــا الشعبى شبرا الى الدنيـــا الجديدة كما كانـــوا يسمون أمريكا فى الثلاثينات ، أو مدينة الدخان والدمى كما سيمتها فى ديوان من وحى هذه الرحلة فى الستينات يحمل هذا العنوان ٠ وعرفت فى رحلة الأيام المائة مالم أعرفه فى مطالعات وتجارب السنوات الطويلة التى سبقتها ، وربما كنت أقل وعيا فى السنوات التى لحقتها لو لم يقدر لى أن أخوض تجربة الحياة بضعة شهور فى عالم الانســـان الوحش الجميل ٠ فليس من رأى كمن سمع كما يقول المثل العربى القـــديم ٠

كنت متفجرا بالحماس متفائلا بانتصار الحرية والعدالة فى العالم كما علمنا تاريخ الصراع البشرى وكما تعلمت فى كلية الحقوق ٠ وكنا فى عصر عظيم رغم كل سوءاته ، وحين دخلت مدينة البنتاغون

وأخواتها لم أكن أعرف أن لوركا قد استوحى نيويورك ديوانا كاملا بعنوان (شاعر فى نيويورك) ، وما فكرت قط أن أستلهم عذابها وشجونها ٠ كان مطمحى الوحيد أن أشاهد وأعرف وأعيش وأن أتبين الخيط الأبيض من الخيط الأســـود ٠ لا أخفى أننى بهـرت رغم ما أحمله من كبرياء الانتمـــاء الى أمتى ووطنى وعالمى ، ولكنى فجعت فى لحظة الانبهار الأولى ، وكأننى خدعت حين افتقدت الخيط الأبيض ٠ لم أكن متعصبا ولا شيفونيا ، ومع ذلك عرفت ـ دون سعى منى ـ أننى من عالم آخر ، عالم ربما كان أنقى وأفضل رغم كل شىء ، عالم مسحوق بالأيدى الدموية الناعمة ٠ وفزعت من الواقع ٠٠ من الحقيقـة المتمثلة فى كل وقت أمضيتـه وفى كل مكان ارتدته ٠٠ صرخت :

عالمنا لم يأت بعد ودربنا طويل

فمثل الفراشات تساقط زملائى الذين شـــاركونى الدراسة التدريبية حول اللهب الجميل ٠٠ حاولت أن أصـــدهم عن التيار الكاسح ٠٠ أن أناشد ضمائرهم ٠٠ أن أقول لهم ٠٠ أصرخ بملء صوتى ٠٠ انه العدو فاحذروه ، ولكنى فى النهاية انحزت الى نفسى وحيدا فى قارب صغير كأننى أبو ذر عصرى ، مقاوما الاعصار حولى داخل قوقعتى المتصلبة ، مشاهدا ومتأملا ٠٠ وكاتبا يحمل هموم لوركا عربى :

الأيـــام المائة

ماذا أخذت منى ؟

ماذا أعطتنى ؟

أحشـــاء بلادى :

لم أنزف ألما مثلما نزفت حين وجدتنى يـــوم ارتدت مكتبـة أكاديمية الشرطة الدولية التى التحقنا بها نحن الصفوة القادمين من العالم الثالث فوجدت أحشاء بلادنا ٠٠ أسرارها ٠٠ كل المعلومات غير المباحة حتى لأبناء الشعب وقادة الرأى فيه معروضة كبضائع رخيصة فى أرفف المكتبـــة ، حتى هؤلاء الذين يتولون فى بلادهم مناصب تقتضيهم الحفـــاظ على سرية الخطط التى ائتمنوا عليها رموها بالمجان الى السادة الذين منحوهم شرف تلقى الدراســـة فى دولتهم الكبرى ، كأنما كانوا يحملون عبئا ثقيلا فالقوه عن كاهلهم لدى أول دعوة ٠

تذكرت حينئذ ان القائد الذى يرأسنى أوصانى قبيل سفرى من فرط محبته أن أحمل معى البحث الذى كتبته ونلت به المنحة لأقدمه الى أساتذتى بالأكاديمية الأمريكيـــة بعد أن أترجمـه الى الانكليزية ، فذلك يخفف عنى عناء اختيار موضوع جديد للبحث وكتابته بتلك اللغة ٠

يبدو أن هذه الوصية لم تكن لى وحدى ، فهكذا صنع الجميع لم يفرق بيننا الاأنهم أودعوا بحوثهم التى أهدوهاالى مكتبة الأكاديمية أسرار بلادهم فى حين كان موضع بحثى بعيدا عن هذه الأسرار ٠ كانت الخدعة ذكية وبراقة قيل لنا : ان الهدف من بعثتنا هو دعـم الأواصر العلمية والتبادل الثقافى : نحن نمنحكم ما لدينا من خبرات ودراسات وننتظر منكم الاستجابة ، حتى يلتقى الشرق والغـــرب لصالح الانسانية المعذبة ٠ ولأننا فرسان كرماء فقد كان عطاؤنا أضعاف منحتهم ٠ وكانت تلك المنحة قشورا من المعلومات الممزوجة بالأضاليل وتجميلا لوجه « اليانكى » القبيح ، وتشويها لقادة العالم

الثالث فى العقدين الخامس والسادس من هذا القرن (عبد الناصر ، نكروما ، سيكوتورى ، كاسترو كلهم مخربون هدامون) • كانت تدريبا أيضا على السلوك المتحضر الذى لانكون بغيره جديرين بالانتماء الى العالم الجديد السعيد ، وتدريبا على استخدام السلاح لمكافحة الارهابيين اليساريين أعداء الحضارة الانسانية مثل الفيتناميين ، وكانت حرب الفيتنام على أشدها فى ذلك الحين !!

مسرح الطاغوت :

مازلت حتى اليوم لا أنسى ماشـــهدت من وحشية العـدوان الأمريكى على الشعب الفيتنامى • كان ذلك فى احدى الليلات الأولى لمقامى فى واشنطن •• تنبهت على أصوات تصفيق وتهليل صادرين من مسكن بالدور الأول فى المبنى • كان الوقت صـــيفا والنوافذ مفتوحة • واذا بى ألمح تلفزيون هذا المسكن الذى التف حوله جمع من الفتيان والفتيات يصخبون ويعربدون ، وهم يشـــاهدون عبر الشاشة الصغيرة طائرات مروحية (هليوكوبتر) تلقى من جوفها الى الفضاء بجنود من الشبان الفيتناميين الأسرى مقيدين بالسلاسل •

صيحات الاعجاب الجنونية كانت تتصاعد كلما أسقط مساعد قائد الطائرة واحدا من هؤلاء الضحايا تنفيسا عن الشحنات العدوانية التى نشأ عليها أولئك المراهقون ، وتعبيرا عن مفهوم الانتصار كما تلقنوه • اعتصرنى الآلم والشعور بالعجز والهوان وكراهية الشيطان الطاغية ، حامل لواء الدعوة الى الحرية والديمقراطية وتقرير حقوق الانسان وحضارة العالم الجديد •

أى جريمة ارتكبها شعب آمن بحقه فى الاســـتقلال وارتضى المذهب الاشتراكى نهجا لحياته بقيادة رجل جاء من أنفسهم عزيز

عليهم ، شعب لايربطه بالأمريكى عقيدة أو ثقافة أو لون أو دين ، يعيش آمنا مطمئنا فى قارة أخـــرى تفصلها عن الحدود الأمريكية عشرات الآلاف من الأميال ، ولا ينازع أصحابها فى خيراتهـــا التى لاحصر لها ولا فى طريقتهم فى الحياة ، فيكون جزاءوه أن تطبق عليه سياسة **احراق الأرض والعقاب الجماعى** ·

يومئذ جاشت مشـــاعرى فكتبت أول قصـــيدة فى ديوانى (مدينة الدخان والدمى) الذى كان حصاد رحلتى الدراسية فى بلاد العم سام اللعين ، معبرا عن وقع ذلك المشـــهد المأســـاوى فى قلبى وفكرى :

وفى مدينة الرخام والرصاص والسحب

تثقب قاع الصمت صرختان

تفضح فى الأسماع ضحكتان

لأن طيارا رموا به أعالى البحار

وفوق معبر صـــغير

تطرقه هنـاك طفلة وأم

بين حقول الأرز والثمار

ألقى بحمله الثقيـل

فطهر الغابات والتلال والأنهار !!

ولم يعد

لكنه قد أدرك المحال !!

بطولة تروى وتذكار لغد !!

فى غابة بلا ســـماء

مدينة الدخان والنساء والدمى !!

مازلت أذكر ذلك الحدث الذى عانيته عبر التلفزيون الأمريكى ذات مساء فى واشنطن · مشهد مروع يذكر بالمسرح الرومانى الذى كان يمثل حلبة مصارعة دموية بين الوحوش الضارية الجوعى والعبيد المجلوبين من البلدان الأخرى فى الامبراطورية الرومانيـة القديمـة التى فرضت سلامها على الشعوب ، سلام المقابر القائم على أشـلاء الشعوب ، وخلفتها أمريكا القرن العشرين لتقسم العالم الى مترفين من أرباب الشركات المتعددة الجنسية وتجار السلاح وأذنابهـــم ، وأصحاب أيد عاملة رخيصة تستنزف موارد بلادهم لخدمة السادة الامبرياليين والابقاء على مستوى معيشتهم ودخولهم من الأســـواق الرأسمالية حيث قانون البورصة الربوية الحاكم والفتات للعملاء الطغاة فى العالم الثالث ·

الميراث الدامى وعقدة (اليانكى)

ورث (اليانكى) ــ الكاوبوى ــ حين هاجر من أوربا مغامرا ومقامرا الى العالم الجديد التقاليد الوحشية الرومانية ، وبدأ يؤسس فردوسه الخاص بجلب الافريقيين من ليبريا التى حولها الى مستعمرة للنخاسة ، وعلى متن السفن فتكت الأوبئة بالآلاف من أبناء أفريقيا المقيدين فى الأغلال حتى لايفروا ، وقتل الذين تمردوا منهم ، وألقى بالجميع فى المحيط الأطلسى طعاما للحيتان · واشتغل الناجون بعد عودتهم عبيدا للأرض البكر · ولقى مصير القتلى منهم الهنود الحمر أهل هذه الأرض الأصليون حين قاوموا ودافعوا عن جذورهم حتى

لاتستأصل ، فدفعوا الثمن دما خصيبا أراد المعتدى أن يسمد به أرض الفئة الباغية ٠

ولكن هذه الأرض وكل أرض لاتشرب الدم ، فكان الثـــأر والقصاص على أيدى جنود الجنرال جياب فى فيتنام حين دارت على الطاغى الدوائر، ولا ننسى نحن الذين عشنا فى النصف الثانى من القرن العشرين مشهد بقايا الجنود الأمريكيين وهم يهرعون مذعورين ليتعلقوا بعجلات الطائرات التى أقلتهم الى أرض الأحلام المجهضة ، فعاشوا هناك مشوهين نفسيا بعقدة الذنب وبئس المصير ٠

هذه العقدة الأمريكية هى التى أوحت الى بقصيدة (الموعد) وهى على لسان طيار أمريكى عائد من فيتنام :

(من أقرب خطو تقوى البشرية / أن تبلغــه بشجاعتها / كانوا يلقون الموت الهابط فوق حقول الأرز / أقزام أقوى من كل عمالقة الأرض / أقوى منا نحن جبابرة القرن العشرين / آلهة القمح المسموم / أعداء التنين ٠

(دمرنا قريتهم ٠٠ أهلكناها / غابتهم أحرقناها / وذبحنا كل الأطفال / لكن لم ينم الحزن / لم يطرق أعينهم خوف / لم يطرقها أبدا / ورجعنا لم نهتك حرمات الموتى /ولدوا ٠٠ عاشــوا ٠٠ غاصوا فى الأرض / عادوا أحياء / أضعافا أضعافا أحياء / أيديهم ناشـــبة بتراب الحقل / أعينهم مائلة فوق الظــل / وقواربهم تحدوها الشمس / من خلف سحابات الشرق / ما كانــوا مرده / كانوا بشرا / دمهم غشى أيدينا / نحن الموصومين / نحن الجبناء المهزومين / جلادى الكلمة / صناع الأحزان) ٠

(وعرفت ٠٠ عرفت ٠٠ عرفت / كيف يذوب الواحد فى الكل / تعنى البذرة فى الشجرة / كيف يموت الانسان شـــجاعا لايخشى الموت / يلقى من شرفات الأفق / مكتوفا لا يلقى كلمه / يرمى قاتله بالصمت / ويعود الى الأرض الأم / وبــل المجــلادى الكلمة / صناع الأحزان / موعدهم عند السور / يوم يموت الافك / تفتح أبواب التنور / ويعيش الانسان / لايخشى الموت) ٠

ويتكرر المشهد المزرى بهيبة (اليانكى) الامريكى بعد عقدين من السنين فى لبنان حين هبط جنود (المارينز) على أرضه كالجراد ، ليملوا ارادتهم بتنصيب أحد عملائهم رئيسا على شعب الجبل الأشم والأرز السامق والصنوبر ٠ فكان مصيرهم الفرار كالفئران ليلحقوا بالسفن الأمريكية فى البحر الأبيض ، يطاردهم الأحرار المناضلون اللبنانيون ، ولاتغنى عنهم دولتهم المدججة بأحدث الأسلحة وفلول العملاء شـــيئا ٠

حين عدت الى بلدى أحكى له ولأحبـــابى شـــــعرا ما رأيت وما عانيت ، كان رد الفعل الأهلى غير الحكومى كما يحدث فى أغلب الأحيان ان لم يكن دائما ، فالسلطة فى واد والشعب فى واد آخر ٠٠ أرسلت بنسخة من ديوانى المستوحى من رحلة واشنطن الى الأستاذ صلاح حافظ أبرع الكتاب الصحفيين وأشدهم جاذبيـــة للقارىء بمقاله الأسبوعى (قف !) وآثرهم عندى كاتبا تقدميـــا وروائيا فذا ٠٠ لم يكد يمضى أسبوع أو اثنان حتى كدت أطير فرحا حين قرأت تحت عنوانه الأثير المثير مقالا بعنوان (لا تقرأ الكتاب من عنوانه ٠٠ حضرة الضابط) يقول فيه :

(الكتاب اسمه : مدينة الدخان والدمى ، ومؤلفه : ضابط بوليس ! وعلى الصفحة الأولى منه سطور تعلن أن المؤلف كتبه بعد

أن عاد من بعثة في الولايات المتحدة الأمريكية · ولاشك أن حقيقة كهذه تكفى ، مع اسم المؤلف ، لكى يبحث القارىء لنفسه عن كتاب آخر !! اذ ماذا يمكن أن يكتب لنا شرطى عائد من الولايات المتحدة ؟ وأى موضوع يمكن أن يتحفنا به غير موضـــوع مكافحة الشيوعية ووسائل انتزاع الاعترافات بالقوة من الأبرياء ؟

ولكن القــارىء ما يـكاد يقلب الصــفحة ـ من باب حب الاستطلاع ـ حتى يفاجــأ بأن ما بين يديه ليس كتـــابا فى الأمن والنظام ، وانما ·· ديوان شعر !

ملحمة من ثمانين صفحة ، خلع فيها الضابط ثيابه الرسمية ، وحمل تحت ابطه قيثارا يعزف عليه بأسى شديد ·

أودعت ضلوعى كل الناس

حتى أعدائى دخلوا بيتى

ونثرت لهم حبات القلب !

* * *

الحب امرأة من شـــمع

تمثـــال عريان

فى بيت من جـــدران

لايعلوها ســـقف !

* * *

صدئت أذني بتراب الافك

خذ معزفك الرنان وعـد

يا طيرا لم يتعلم بعـد

أيـن يغنى !

* * *

وعبثا نبحث بين الصفحات عن أثر لرجل الشرطة الذى يحمل الكتاب اسمه ·· فاللهجة التى يغنى بها لهجه رجل مطارد، لا رجل يطارد الآخرين · وهو من الصفحة الأولى الى الصفحة الأخيرة يعزف أحزان المضطهدين ، ويتعاطف مع فتى من سلفادور وصديقة من كولورادو، وزنجية من أوهايو·· وأطفال من فيتنام حرقتهم طائرات المعتدين ، وهو يستسلم للأسى حتى فى عناوين القصائد ، فواحدة اسمها « مقبرة كنيدى » ·· وأخرى اسمها « فى ليل الغربة » ·· وثالثة تختصر الطريق وتحمل الاسم المباشر : « الحزن » ! وكل هذا ليس من طبيعة رجل يمارس السلطة ، وانما هو أقرب الى طباع الذين يفزعون منها ·

ولهذا ، فما من قارىء يفتح الكتاب الا ويلح عليه سـؤال مثير : ما الذى حدث للضـابط فى أمريكا وملأ وجـدانه بكل هذا الفزع ؟

وفى سبيل الحصول على جواب لهذا السؤال ، فان القارىء لايملك الا أن يواصل القراءة · وقد يضطر ـ كما اضطررت أنا ـ الى قراءة كل قصيدة أكثر من مرة ، قبل أن يصل الى جواب مقنع ·

ولكن ، ما هو هذا الجواب ؟

اذا كان لى أن أثق بحكمى ، وسطور الكتاب نفســـه ، فان مازلزل الشاعر فى أمريكا هو أنه رأى السلطة هنـــاك وقد بلغت أقصى درجات كمالها ، فاذا بها تكف عن خدمة المجتمع ، وتتحول الى قاهر له !

فأمريكا بلاد أتاح فيها المجتمع مطلق الحرية لسلطات الحكم ، وزودها بكل ما تطلب من مال ، وأتاح لهـــا أقصى ما تحلم به من امكانيات مادية وعلمية وبشرية ·· فاذا بها تسيطر بكل ذلك عليه وتطحن ارادته ، وترغمه على مالايريد ، وبعد أن كان المواطن الأمريكى سيدا لهذه الأجهزة أصبح عبدا لها ، تقرر هى مصـــيره ودوره ·· ومستقبله ·· فهذا يحكم ·· وهذا يموت فى فيتنام ، وهذا يدخل السجن ، وهذا زنجى ، وهذا شيوعى ، وهذا لاتينى ، والجميع فى النهاية أدوات ، وشخوص بلا ارادة ، وعبيد فى يد السلطة التى يتصورون أنها فى أيديهم !

أى شاعر فى الدنيا يفزع من مثـــل هذه الحيـــاة ·· حتى ولو كان ضابطا يحترف ممارسة السلطة ؟

لقد عاد « حسن فتح الباب » من أمريكا فزعا مما رأى ، وخائفا من السلطة بالمفهوم الذى لمسه هنـــاك · فكان طبيعيا وهو يترجم رحلته الى أبيات من الشعر أن يغنى باهجة الخائفين ، وأن يتعاطف مع الغرباء والهاربين ·

ولكن ·· هل كان يمكن أن يعود حسن فتح الباب من أمريكا بمثل هذه الأحاسيس اذا لم يكن فى حقيقته شـــاعرا بكل معنى الكلمـــة ؟

وبعبارة أخرى : هل يمكن أن يكتب مثل هذه الكلمات ضابط تنكر في زى شاعر ؟

لا أظن !

فالفزع من سرطان السلطة كما عاد به حسن فتح البـاب لايمكن أن يكون فزع ضابط ، وانما هو فزع شاعر حقيقى · فزع رجل ينبض الشعر فى عظامه ولا يحاول على الاطلاق أن يفتعله ·

ولأنه شاعر ·· فان الايمان بالانسان يجد طريقا بين أبياته من خلال الضباب والأسى ·· فهو مؤمن بأنه :

يـوم يموت الافك
تفتح أبـواب التنور
ويعيش الانســـان
لايخشى الموت

ولأنه شاعر ، فان التفاؤل القليل فى أبياته يغلب على الأسى الكثير الذى تنضح به هذه الأبيات ؟

ولأنه شاعر ·· فان ما يقوله فى الكتاب لايدل عليه العنوان ·· لو اكتفيت أنا شخصيا بالعنوان لما قرأته · ولكن الذى حدث هو أننى قلبت الصفحة ، وأتحدى كل من يقلب الصفحة مثلى أن يكف عن القراءة قبل أن يبلغ السطر الأخير فى ديوان هذا الشاعر العذب الحزين ··

على الشاطىء الآخر كان رد الفعل النقيض ، وذلك حين عدت الى بلدى ، وفي يدى تقرير عن الدروس التى أفدتها من البعثة. قدمته للوزارة التى أوفدتنى الى الخـــارج ، وظننت أننى بذلك أوفى ما طوقتنى به من دين في عنقى ، وأدفع عنى مسئولية التقصير فى أداء الواجب ، والظن بأننى كما ذهبت جئت أوعدت بخفى حنين . فكأننى امرؤ قيس عصرى :

لقـد طوفت في الآفـاق حتى   رضيت من الغنيمة بالايـاب !!

كنت واهما أو خياليا على الأقل ، فقد رفضوا استلام تقريرى ، ووصفنى بعضهم بأننى (على نياتى) أو متطرف وعنيد لايتعظ ، وسأجلب على نفسى المتاعب وأجلبها عليهم اذا قبلوا ما كتبت كما قال البعض الآخــــر .

قلت : ما جئتكم الا بالحقيقـــة : قالوا : نحن لا أنت الذين ندرك الحقيقة . ولقد صـــدقوا !! فحين يحذر رجـــل بنى جلدته ألا يذهبـــوا الى الفردوس فان أهون ما يوصف به هو الحماقة !! فالفردوس الذى وجدته جحيما تتلوى فيه الأفاعى هو من محض خيالى المريض .. وهم وحدهم الذين يحتكرون الحقيقة المغيبة .. ويا أيتها الحقيقة كم من جرائم ترتكب باسمك !!

لكم رأيت وعانيت فى معمل استلاب الفكر وغسل المخ منذ أعوام طويلة .. ولكنه الماضى الحاضر ، فالتاريخ يعيد نفسه وان كان ذلك فى أزياء جديدة .. واليوم فى عصر الجيـــــل الثالث أو الرابع أو ... أو ... من التكنولوجيا والعقول الالكترونيـــة وفنون الدعاية والأصباغ الباهرة على وجه من يحملون الأقنعة .. الأنبياء الكذبة ، ماذا تخبئ لنا (مدينـة الدخان والدمى) من منح وهدايا وعطايا فى عصر الانسان الآلى والانسان الأول والأخير ؟!!

وهران وردة اغترابى

وهران ٠٠ هذه المدينة الهادئة الجميلة التى تنبسط شواطئها وسهولها وروابيها مغلفة بالجمال الساحر الوادع على الســاحل الجنوبى للبحر الأبيض ، هى قرة أعين الشعب الجزائرى وعروس مدائنه ٠٠ يحدها هذا البحر الحافل بالرؤى والحقــائق شمالا وتعانقها مدينة وجدة المغربية فى الجنوب الغربى ٠ أما فى الجانب الشرقى فهى تصافح مدينة مستغانم الجزائرية الواقعة مثلها على المتوسط ، وتقع تلمسان مدينة الحضارة الاسلامية ذات التاريخ التليد فى الجزائر جنوبها ٠

وتحظى وهران بشهرة واسعة بالنظر الى موقعها الاستراتيجى فى أقصى الشمال الافريقى على البحر الأبيض ، اذ تواجهها على سواحله الشمالية المدن الفرنسية ، تليها غربا المدن الأسبانية التى ارتبط تاريخ أسطولها البحرى ـ منذ سقطت غرناطة آخر مدينة أندلسية فى أيدى الأسبان سنة ١٤٩٢ م ـ بتاريخ البحرية العثمانية الجزائرية لما جرى بين الفريقين من معارك بحرية ومن هبوط أحفاد

فرديناند وايزابلا ملكى أسبانيا كالجراد أرض الجزائر ، ثم اجلائهم عنها بعد حروب مروعة لم تكن تنطفىء نيرانها شهورا أو سنين ، حتى يشب أوارها بعد حين يقصر أو يطول ٠ فكانت سجالا بين كروفر طوال عدة قرون ٠

واذا كانت معارك العثمانيين والأسبان فى القرنين السادس عشر والسابع عشر قد دارت بقصد السيطرة على حوض البحر الأبيض وموانئه فى عصر الامبراطوريات ، فانها كانت فى بعض جوانبها حربا صليبية أخرى شنتها العسكرية الأسبانية تظاهرها أوربا عامة لقص أطراف الدولة العثمانية الكبرى زعيمة العالم الاسلامى فى تلك العصور ، وارغامها على تسليم الراية التى خفقت طويلا على المشرق والمغرب وعلت بلاد البلقان التى تشمل كافة أصقاع وسط أوربا ٠

ومن ثم كان هذا الصراع الحربى هو الوجه الظاهر للصراع بين ثقافتين متباينتين ، وان كانتا متآخيتين فى نظر الاسلام ومتعاديتين فى نظر الأوربيين ، اذ كانت سبانيا تدين بالكاثوليكية المتعصبة على الرغم من ارتدائها مسوح عيسى بن مريم عليه السلام ، وتدميرها الديار الاسلامية ، باسم الدفاع عن مبادئه ، ونشر ألوتيه، والثأر لهزيمة الصليبيين الغزاة الأوائل فى المشرق ، وولايتهم على المدينة المقدسة فى فلسطين ، ولم يكف الأسبان قضاءهم على الدولة والحضارة الاسلاميتين فى الأندلس ، بل تعقبوا المسلمين النازحين الى الشمال الافريقى بعد أن أخرجوهم من ديارهم واعتلوا فيهم سيوفهم ، أو تعقبوهم على السفن التى أقلتهم فأغرقوهم ٠

وكانت وهران ـ بحكم موقعها المشار اليه آنفا ـ فى قلب هذا الصراع ٠ وطالما وقف أهلها ، بعون من المدن الجزائرية الأخرى، صفا مرصوصا الى جانب العثمانيين ، يدافعون عن مدينتهم هذه

في حرب وقائية عادلة ، ويصدون جحافل المغيرين والمغامرين البغاة بكل ما أوتوا من قوة وما استطاعوا من رباط الخيل يرهبون بها عدو الله وعدوهم كما جاء في القرآن الكريم . ويحفل تاريخ وهران وشقيقاتها من المدن الساحلية المتاخمة لها وأهمها تلمسان بأنباء الوقائع الحربية التى استمرت ثلاثمائة سنة كما وثقها المؤرخ الجزائرى توفيق المدنى ، وسفكت فيها دماء عشرات الآلاف من الأنفس وأحرق الحرث والنسل ، وقوض الجناة فى بضعة أشهر أو بضع سنين ما شاده أبناء وهران وتلمسان البررة على أرض الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة من حضارة عبر آلاف الأعوام .

ملاحم وبطولات :

وكأنما كتب على هؤلاء الأبناء الوهرانيين جيلا بعد جيل أن تكون نعمة الموقع الحضارى التاريخى الحيوى لمدينتهم نقمة عليهم ، فظلوا فى رباط دائم . وانتقلوا من كفاحهم ضد الخطر الأسبانى الذى انتهى بالاحتلال فى بعض الفترات الى الجهاد فى سبيل استرداد مدينتهم هذه من الفرنسيين الذين خلفوا الأسبان منذ استولوا على الجزائر سنة ١٨٣٠ بعد غزو بربرى غاشم أثيم . وقد أدت وهران دورا مجيدا فى المعارك التى دارت على مشارفها الممتدة من تلمسان بين الفرنسيين وبين الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر بن محيي الدين، هذا الفارس النبيل والمتصوف الورع.

ويروى المؤرخ الجزائرى محمد بن عمرو الطمار فى كتابه (تلمسان عبر العصور) الصادر سنة ١٩٨٤ أحداث هذه الحقبة قائلا ان زحف العدو من جهة والفتن الداخلية من جهة أخرى أقلقا أهل العقد والحل من الأشراف والعلماء والأعيان فى الناحية الغربية من البلاد (تلمسان ووهران) فألحوا على محيى الدين والد الأمير

عبد القادر فى قبول بيعتهم له على الامارة والجهاد » . فأبى قبول الامارة وقبل القيام بأمر الجهاد • فرضى القوم بذلك ، فالجهاد يشغل الناس عن الفساد • ومن ذلك الوقت أخذت الحشود ترد على مقربة من (القيطنة) ، فينهض بهم الى وهران • وجرت بينه وبين المعتدين حروب أظهر فيها محيى الدين اقداما وشجاعة فائقة استحوذت على قلوب المجاهدين » • ثم عقد لواء الامارة وقيادة الجيوش لولده عبد القادر ولقبه بناصر الدين ، فواصل الجهاد طوال سبعة عشر عاما لا تلين له قناة » •

ولقد كان لوهران شرف التضحية بروح أول شهيد جزائرى من بنيها استخدمت آلة المقصلة الجهنمية فى اعدامه ـ بعد وقف استعمالها فى أعقاب استقرار الثورة الفرنسية ـ انتقاما من هذا الشاب الفدائى الذى اضطلع ، فى أثناء حرب التحرير التى اندلعت سنة ١٩٥٤ ، بعمل بطولى استشهادى دمر منشـأة ذات أهمية اقتصـادية بالغة فى وهران ، وكانت تتبع بالضرورة سـلطة الاحتـلال •

ومن بعد (أحمد زبانة) استمرت وهران تدفع ضريبة الدم وتلد الثائر فى أعقاب ثائر ، وكأن الورود التى تكسو حدائقها الغناء مروية بدماء أولئك الضحايا الخالدين •

ومن ثم امتزجت فى الأغنيات الوهرانية سواء باللغة العربية أو بالعامية الجزائرية معانى الفداء بالقيم الجمالية المعبرة عن سحر وهران ، تلك المدينة ذات الصبغة الأوربية التى مازالت عليها منذ غادرها الجنود المستوطنون فى ١٩٦٢ عقب انتصار ثورة التحرير ، فهى تذكر المقيم بها أو الوافد اليها بالمدن الفرنسية الساحلية فى تخطيطها وفى الفن المعمارى لبيوتها ، حتى أن أهلها يرددون حتى اليوم أن شوارعها كانت ترش بماء الورد كل صبيحة • ولكنها

مدينة عربية في المقام الأول بعد أن استخلصها من براثن الاستعمار عبد القادر الجزائرى وزبانه وسائر المجاهدين الأبطال الذين سقط منهم محاربون ومدنيون بلغ عددهم مليونا ونصف مليون من الشهداء الجزائريين .

لقد كان الوهرانى فى أثناء حقبة الاحتلال البغيض غريبا فى مدينته ، وكأنه المتبنى فى ربوع شعب بوان ، مما يذكر من زارها من الأشقاء العرب فى الستينات والسبعينات بقوله :

كـأن الفتى العربى فيهـا
غريب الوجه واليد واللسـان

اذ غلبت الرطانة بالفرنسية فى الحياة اليومية حتى بعد السنوات الأولى للاستقلال ، لوأد اللغة العربية على يد المحتلين ، واغلاقهم المدارس ، وقصر التعليم على المعاهد الفرنسية اللسان ، باستثناء الكتاتيب التى سمحت السلطات المحتلة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين بانشائها . ولما انتصرت الثورة حرصت على أن ينص ميثاقها الوطنى ودستورها على أن اللغة العربية هى اللغة الوطنية الوحيدة ، وأنشأت آلاف المدارس والمعاهد التعليمية وعدة جامعات منها جامعة وهران التى تنافس منذ انشائها جامعة الجزائر العاصمة فى النهوض الى المستوى اللائق باسترداد الهوية الثقافية العربية ، واستشراف أفق جديد من التقدم الأكاديمى ترقى به الى مصاف الجامعات العربية فى المشرق .

واليوم تشهد وهران نهضة ثقافية عربية بعد أفول شمس « المفرنسين » ، ذوى اللسان الأجنبى وان كان أحفاد المستوطنين مازالوا يرتادونها سائحين ، ليشاهدوا البقاع التى طالما نعم فى ربوعها أجدادهم ، ويمضوا يوما أو بعض يوم فى المتنزهات التى

كان هؤلاء الأجداد يقضون بها راحتهم الاسبوعية ومازالت آثارهم تدل عليهم ، وليطلوا من « جبل مرجاجو » على مدينة وهران الرابضة تحت سفوحه فى دعة وأمن تحت ظلال الحضارة العربية الاسلامية • وربما طاف هؤلاء السائحون حول البيت الذى كان يسكنه فى وهران الأديب الفرنسى الحائز على جائزة نوبل (ألبير كامى) مبدع رواية (الطاعون) التى استوحاها من أحداث جرت فى وهران التى ولد بها وعاش فيها حينا من الدهر قبل أن يعود أدراجه بعد انتصار الثورة الجزائرية الى أرض أجداده •

وأشهر العلماء الفرنسيين الذين مازالوا يرتادون وهران حنينا الى العهد القديم حينما كانت هذه المدينة جزءا زاهيا من الامبراطورية الفرنسية ، وليوثق علاقته بالمؤرخين والأدباء الجزائريين المستشرق (جاك بيرك) المعروف بتعاطفه من الحضارة الاسلامية عامة والجزائرية خاصة •

وتشرق الشمس من جديد :

تتعاقب الأجيال فى تواصل حميم ، فتنجب وهران أديبا موهوبا بعد أديب ، مخلفة الكاتب الذى ذاع صيته بعد موته بزمن مديد ، وهو « ابن محرز الوهرانى » صاحب كتابى (الثغر الجمانى) و (مقامات ابن محرز) ، بطلائع جديدة من المبدعين الذين استلموا علم الأدب من بعده ، فاستأنفوا مسيرته ، كما أضافوا تقنيات حديثة الى قصائد مفدى زكريا شاعر ثورة التحرير الذى قضى سنوات من حياته فى زنازين الفرنسيين ابان هذه الثورة ، ومنظومات الشيخ محمد العيد خليفة شاعر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين •

فمن أدباء الآونة الحاضرة فى وهران عبد الملك مرتاض وعمار بلحسن وعمار يزلى وبلقاسم بن عبد الله والأعرج واسينى وأمين

الزاوى · وكلهم كتاب قصة ورواية ودراســـات ، وقد أصبحوا معروفين بانتاجهم فى مصر وفى سائر بلدان الوطن العربى الكبير ، جنبا الى جنب مع أدباء الجزائر العاصمة وفى طليعتهم الطاهر وطار ورشيد بوجدرة الذى تحول من الكتابة بالفرنسية وكان أحد أقطابها الى الكتابة بالعربية والروائى عبد الحميد بن هدوقة والقاص مرزاق بقطاش ·

ومن الشعراء محمد مأمون حمداوى ورفقاؤه من أحفاد رمضان حمود ومحمد العيد خليفة ومفدى زكريا وأبناء الدكتور أبى القاسم سعد الله والدكتور محمد صالح باوية اللذين أسسا حركة الشعر الحر بالجزائر · أما الأديبات والشواعر الوهرانيات ، فقد بزغت مواهبهن على مسرح الحياة الثقافية فى الجزائر خاصة ، وفى عالمنا العربية عامة بعد أن أثرين قصيدة النثر بعطاء خصب · فقدمت زينب الأعوج مجموعتها (أرفض أن يدجن الأطفال) ، وربيعة جلطى مجموعة (تضاريس على الوجه الباريسى) ، وأم سهام عمارية بلال مجموعتيها (زمن الحصار والولادة الجديدة) و (من يوميات أم على) ، وكلها تكوينات ابداعية تنضح عذوبة ووجدا فى تعبيرها عن أشجان هؤلاء الشاعرات فى مجتمع ما بعد ثورة التحرير ، وعن وقع هموم الأمة العربية فى هذه المرحلة التاريخية الحافلة بالنقائض والانكسارات · كما يشى غناؤهن الشجى بآلام الأمومة وذكريات الطفولة · ويكفى للدلالة على ابداعهن الذى قطع شوطا بعيدا على طريق التطور ، أن نعقد مقارنة بينه وبين قصائد الشعراء الجزائريين فى عصر الأتراك العثمانيين مثل قصيدة الشيخ أبى زيد عبد الرحمن التلمســانى فى مديح (الباى مصطفى بوشــلاغم) بعد أن نهض الشـــعب فى عهده ، واسترجع وهران من الأسبان ، والتى قال فيهــا :

وقل وهران يهنيك افتكـــاك
وإنقاذ من الأسر الشـــديد

جزى جيش الجزائر كل خير
اله الخلق ذو الملك العتيـد

هم المسبـــتنقذوك وقد أحاطت
بك الأعداء تطمع فى المزيد

وقــد ظنـــوا بأن لهم نجـــاة
بمرسى الثغر من بعد الشرود

ولو أغنى التحصـــن عن قتيل
وحال السور من قدر المريد

لما فتحت بروجهمو وهـــدت
معـــاقلهم بصـــاعقة الرعـــود

وان لم يســـجدو لله طـــوعا
لقد سجدوا بمنصـلت الهنود

وان فروا ســـتدركهم قريبا
بأندلس جنود من أســود

وقصيدة شاعر آخر فى هذا الغرض وتلك المناسبة ذاتها :

ســـلام على الجند المؤيد بالنصر
ضراغـــم خـــلق الله فى البر والبحر

جيوش بها الاســـلام عز منـــاله
فأصـــبح ديـــن الله مبتســـم الثغر

همو منعوا الاســـلام من كل صـــائل
وهم قصموا الأعداء بالبيض والســـمر

فهذه الأبيات لا تعدو كونها نظما مما كان المعلمون يطرحونه على التلاميذ فى موضوعات الانشاء والمحفوظات . يتبين ذلك اذا قرأنا مقطعا من النص الآتى من قصيد نثرى للأديبة عمارية بلال بعنوان (امنحينى شمسك ياوهران) . فعلى الرغم من افتقاده عنصر الوزن والقافية ، فقد جاء متدفقا متوهجا بحرارة التجربة ورهافة الاحساس ومتوشحا بالصور التشكيلية المركبة :

أعود اليك ياوهران

أعود الى عيون الطيبين

بحارة (سيدى الهوارى)

أعود أتسلق ضفائر الشرفات

لأصل الى مشارف (سيدى عبد القادر)

وفى خلوة الألم

أرى وجهك الحنون

يجترح السـؤال

يعـانق المحـــال

فنابى أن نفترق

* * *

كئوس الجنة المترعة بين يديك

أضواء القمر تتسكع

رغم احتجاج النجوم لديك

هيا جيبدى كهف ظابى
لضــوئك وشمسك
امنحينى نفسك ياوهران
وخذى منى ما تشبائين
ليسرى الحب فى الشرايين

هكذا نشهد لوحات تشكيلية متتابعة يمتزج فيها تاريخ وهران بالطبيعة الساحرة فى شواطئها وجبالها وغاباتها ، ويتأرجح عبير تلك المدينة الزاهية التى يسميها سكانها (وهران الباهية) ، وتعد العاصـــمة الثانية للوطن الجزائرى ومعقلا من معاقل الجهاد فى العصرين الوسيط والحديث ، ومن أحيائها المشهورة حى (سيدى الهوارى) الذى ورد إسمه فى القصيدة ، وهو متصوف له ضريح بذلك الحى ويعتبره أهل وهران شيخا لمدينتهم ٠ ومن معالم وهران أيضا جبل (المرجاجو) المطل على المتوسط ويسميه السكان جبل (سيدى عبد القادر) ٠ كما ورد فى القصيدة أيضا ذكر (الأوراسى) وهو اسم أكبر أسواق البلدة ٠ و (الكورنيش) وهو الطريق الممتد على ساحل البحر حيث يرتاده للتنزه ليلا ونهارا سكان الأحياء المجاورة وهو تحفة فى جمال التشييد ونضرة الزهور التى تطوقه فى حنان ٠

أمســـية فى وهـــران :

من وحى « وهران » كتبت القصيدة التى تحمل هذا الاسم بعد أيام قلائل من اقامتى فيها بمناسبة سفرى اليها للعمل أستاذا بكلية الحقوق فى جامعتها فى أواخر عام ١٩٧٧ ٠ ولقد أثارت لافتة زرقاء صغيرة على جدار طريق رئيسى ـ كنت أمر به فى المدينة لأول مرة ـ

حاملة اسم (العربى بن مهيدى) ذكريات ثورة التحرير التى طالما تغنينا بها فى الخمسينات ، مخلدين ذكرى هذا البطل الشهيد الذى لم يملك الفرنسيون الا أن يكبروه ويشيدوا بشجاعته بعد أن عذبوه حتى الموت ، دون أن ينبس بينت شفة لارشادهم الى مكامن رفاقه المحاربين فى الجبل أو الادلاء بأسمائهم ، فاعتبروا صموده من الخوارق والأساطير (والفضل ما شهدت به الأعداء) ، والقصيدة وردة دم لامتزاج جماليات المكان فيها بذكريات النضال وفداء ابن مهيدى :

ها أنت عائد اليها مرة أخرى
مدينة الحلم التى حملتها فى القلب
غنيت لها فى الفجر
كان الفجر فى زماننا طائرة الصباح
تشتبك الأيدى عليها .. نلتقى
نطفى حرائق الجراح
وكان يأتى كل يوم مرة
يحمل قرص الشمس فى الجبين
نستفتح المسير باسمه الجميل
كأن الدم المراق فى حدائق الشفق
ـ والأمهات يستبقن للصفاق
يرتقبن مطلع الهلال
والبنات عودة القمر

أغنية الفرسان والعشاق يا وهران
ياسيدة الغمائم البيضاء
والخمائل الحمراء
وهران يا أنشودة الأمواج والنخيل
يا كرمة رقراقة في عصرنا العقيم
في عالمنا البخيل
ياأسطورة التلال
وياعبير الياسمين برء قلبي العليل

وما لبث الماضي أن امتزج بالحاضر في القصيدة ، اذ تذكرت من خلال تيار الوعي ما كانت تطالعنا به وكالات الأنباء من أخبار ملاحم الفدائيين من أنباء وهران منذ اندلعت نيران ثورة التحرير الجزائرية في أول نوفمبر ١٩٥٤ ، وتداعت في خاطري حين أبصرت اللافتة الزرقاء التي تحمل اسم العربي بن مهيدي ذكرى استشهاده ، تداعت ذكرياتي حين كنا في مصر نتابع الزلزال الذي هزت به ثورة الجزائر فرنســـا الاستعمارية ، وبطولات المناضلين الذين ناصرهم الأحرار في كل مكان وتغنينا نحن الشعراء المصريين خاصة والعرب عامة بما كانوا يحرزون من انتصارات ، وهم يغيرون من مكامنهم في جبال الأوراس على معســـكرات جنود العدو الذين كانوا أضعاف عددهم حتى بلغوا مليون جندي مدججين بأعتى الأسلحة الحديثة ·

كنت في ذلك اليوم البعيد على موعد مع زميـــل عراقي من أســـتذة كلية الحقوق بجامعة وهران لأزوره في منزله ، وكنت حديث عهد بالمدينة ، فضللت الطريق اليه ، واتخذت مسارا آخر يفضي بي بعيداً الى ضاحية وهران في حي « المرسى » · وفجأة التقيت

بأحد تلاميذى فأرشدنى الى الطريق الصحيح الذى علت مفتتحه اللافتة التى تحمل اسم البطل الفدائى (العربى بن مهيدى) الذى عرفنا اسمه وتضحيته فى الخمسينات التى مضت عليها نحو ثلاثة عقود من السـنين . ومن شـدة تعلقى بمدينة وهران ، مدينـة الفدائيين ، فى ذلك العهد البعيد كنت أشعر أننى زرتها من قبل ، ولكن الزيارة الحقيقية كانت فى ذلك اليوم المشهود وهو ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٧٧ ولم يكن قد مضى على حينئذ الا شهر أو أقل قليلا :

عشرون عاما ثم عدت

طوفت فى الآفاق ما ارتويت

مررت « بالمرسى » ضللت

أنقـذنى الدليـل

صحوت فى السوق التى تزاحمت :

لا تبتعد .. هناك عند المنحنى

مفتتح الطـريق

تألق الحروف والورود باسمه على الجدار

تغدو اشارة المرور ألف نبع

أخضر القرار :

العربى بن مهيدى

* * *

يقول لى الدليل : لم يضره أن يسلخه قبل صلبه

تساقط الوجه النبيل .. أطفئت عيونه

توهج الأوراس .. لم يفه بكلمة لقاتله
وانتصبت جمجمة سيفا وصخرة ومطرقة
قال الفرنسي الذي أرهقه التعذيب :
لو أنني امتلكت حزمة من الرجال
من معدن ذلك القتيل
لسقت هذا العالم الشقى
فى ركاب جيشنا المحاصر الكليل
وانهل نبع ألف نبع أخضر القرار :
العربى بن مهيدى

كانت وهران يومئذ (نوفمبر ٧٧) قد تحولت الى منفـــاى الاختيارى ، وحرمت على نفسى أن أعود الى وطنى الا بعد أن يعود الى أصحابه الحقيقيين الذين يرفضون التطبيع مع العدو الصهيونى الذى اغتصب فلسطين وأراضى أخرى عربية . فاشتد حنينى الى مصر . وسال دمع قصيدتى على أوراق كانت أمامى وأنا قابع فى تلك الأمسية الشتاجية فى ركن قصى من مقهى يقع فى شارع العربى بن مهيدى بعد أن عدلت عن زيارة صديقى الأستاذ العراقى :

وفى زحام السوق عند الجامع الكبير
عيونك الواسعة السوداء ياوهران
فى امسيتى تلامحت
وانتشر الصغار حولى
والنجوم انتثرت

وبللت خدى قطرتان من دموع « طيبة » التى
هجرتها ٠٠ ولم يكن وداع

* * *

كان دليلى فى حديقة الصبا
تحت جناحى طائر نسر قديم
طيرا بلا هموم
يطوف بى بين المصابيح التى تقاطرت
خلف الغيـــوم
بين القباب فى الأعالى والضفاف والنجوم
العمر عشرون ربيعا ٠٠ كنته يوما
وكان لى حديقة ٠٠ وكان موطن
يعرفه العشاق والفرسان ياوهران
يأتى كل يوم مرة
يحمل قرص الشمس فى الجبين

* * *

حدثنى الربيع فى وهران عن حديقتى
عن زمنى
عن وطنى

اسكندرية ٠٠٠ وهران

لقد تردد اسم وهران فى الشعر العربى خلال الخمسينات التى اضطرم فيها لهيب الثورة الجزائرية ، وورد ذكرها فى أول قصيدة استلهمت فيها هذه الثورة وهى قصيدة (شهيد من الجزائر) التى تضمنها ديوانى الثانى (فارس الأمل) ٠ ثم كانت محور أولى القصائد التى كتبتها فى أثناء اقامتى بالجزائر وهى (أمسية فى وهران نظرا للأهمية التاريخية لهذه المدينة ، ولأننى أقمت بها عشر سنين متواصلة ٠ ومن ثم كتبت من وحيها أيضا ثانية تلك القصائد وهى (اسكندرية) ، ويمكن أن تسمى أيضا (وهران) ٠

أما السبب فى اختيارى العنوان الأول دون الثانى ، فيرجع الى أن أستاذا من زملائى الجزائريين قد صحبنى يوم ٢٠ يونيه ١٩٧٨ فى نزهة على البحر الأبيض المتوسط ألقينا فيها الرحال على ضاحية لوهران تسمى (عين الترك) ٠ وما ان بلغناها وجلسنا فى احدى مقاهيها المطلة على البحر حتى أحسست أننى عدت الى الاسكندرية للشبه بينها وبين وهران ، فكلتاهما تقع على البحر الأبيض وتحمل قسماتها ظلا من المدن الأوربية ، كما تشتركان فى التضاريس اذ تتكون أرضها من مرتفعات ومنخفضات ، على خلاف فى ذلك مع المدن المصرية فكلها منبسطة ٠

أذكر أن شعورا خامرنى ودعانى الى المشى على ساحل البحر حيث اتخذت والصديق مكاننا ، وخيل الى أن الاسكندرية التى لم أحب مدينة مثل حبى لها غير بعيدة عنى ، وأننى أستطيع أن أصل اليها اذا استمررت فى مسيرتى ٠ ففعلت ولم أفق من حلم اليقظة هذا الا على هزة حانية على كتفى من يد رفيق النزهة ٠ فأخرجت ورقة من ردائى وكتبت قصيدة (اسكندرية) أو هى التى كتبتنى ٠ وقد خط قلمى تحت عنوانها هذه العبارة : (الى صديقى عبد العزيز العازف الشعبى المتجول على رصيف المتوسط) ٠

لقد أهديت هذا الصديق قصيدتي ، لأنه كان أول انسان أرى طيفه ماثلا في مخيلتي حين كنت أمشي على الساحل ، وكأنني استرجعت ذكرياتي مع هذا العازف الشعبي الذي طالما بحثت عنه كلما سافرت من القاهرة الى الاسكندرية ، لأسمع منه أغاني سيد درويش وكان يجيد أداءها • وكثيرا ما كنت أجده يعزف على عوده في مقاهي الاسكندرية المتناثرة على « الكورنيش » ليطرب أسماع روادها نظير دراهم معدودة تطعمه وأسرته من جوع :

لماذا تذكرتك الآن ؟ كل البلاد سواء

و (وهران) سيدة الماء والجبل الأخضر المتوادي

وراء جياد المساء نجاوى عشيقين يسترقان الثواني

اسكندرية تجتاز دائرة الوهم

مازال قلبي الذي أثقلته الغمائم صفراء

والألق الارجواني

يرصد صوت العصافير بين البدايات والمنتهى

والنهايات والبدء

والرقصة المستباحة بين الأقاحي وبين المويجات

ان الضفاف علينا تشابهت اليوم

كل الصخور التي انقذتنا قديما تنادى

وكل القلاع التي غررت بالمحبين مادت

على الرمل واعتنق الشاطئان

ولون السماء يحاصرنا الآن !!

اسكندرية تخترق الحلم
سيدة الماء وهران فى القلب
اغنيـة لم تتـم
وصبارة من رحيق مصفى
ولكن قلبى طريد
وأنت بعيد بعيد ... وحيد

وهران تودع بومدين :

تسقط أوراق كثيرة من شجرة الذاكرة فى خريف العمر ، ولكن هنـالك من الأوراق ما يبقى عليها طوال الحيـاة .. ومن الساعات التى ستظل تخفق كالقلب مهما قدم العهد تلك التى أعقبت علم مدينة وهران برحيل البطل الخالد هوارى بومدين فى أواخر ديسمبر ١٩٧٨ . كان الحزن عميما وعميقا وكبيرا بحجم الانجازات التى حققها بعد أن تولى رئاسة الجمهورية خلفا لزعيم آخر من أبطال ثورة التحرير بعد انقلاب عسكرى قاده بومدين ، ذلك هو الرئيس أحمد بن بللا . لقد رحل بومدين فجأة وهو قرة العيون وملء القلوب . تابعه الجزائريون ومعهم أبناء الوطن العربى فى المغرب والمشرق وهو يطير الى الاتحاد السوفيتى نصير حركات التحرير لعقد صفقة أسلحة أو القيام بمهمة دبلوماسية ، ومنـه الى دمشق حيث أذيع على العالم نبأ مرضه المفاجىء الذى اختلفت فى شأنه الأقاويل .

ما ان أعلن نبأ وفاته حتى زلزلت الأرض زلزالها . ولن أنسى مشهد الشباب الوهرانى وقد اندفـع فى تظاهرات ضخمة تسد الشوارع وتغمرها بكاء وصياحا يمزقان القلب . فقد كان

الرجل هو الرمز والتاريخ والأمل فى الغد ، رأيت بعضهم يدقون الجدران برؤوسهم فتتدفق منها الدماء كالنوافير • تذكرت حينئذ يوم تشييع جنازة الزعيم جمال عبد الناصر ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ فى القاهرة •• كان مشهدا رهيبا مثل يوم الحشر •• ملايين جاءت من كل حدب وصوب لتودع البطل ابن مصر وحبيب الفقراء •• كادت الأيدى التى ترتفع لتمسك بالتابوت الذى أودع فيه الجثمان تمزق غطاءه لتحتفظ بذكرى من ابن الشعب ، أو لتحول دون دفنه فى التراب كأنه ليس من بنى البشر ، وكأن أبناء البطل يريدون أن يدفنوه فى قلوبهم التى شغفت به حبا كما شغفها • هنالك رأى السيد / شعراوى جمعه أن يحمل التابوت فى طائرة حربية حفاظا عليه من أيدى الجموع المتدفقة الباكية التى تشبثت به خشية أن يوارى بعيدا عن عيونها فيكون فراق لا لقاء بعده •

كنت أمارس عملى بمصلحة الأمن العام فى ذلك اليوم المشهور وقد أعلنت الحالة ج بمعنى حالة الطوارىء ، وشهدت مع بعض زملائى منظر جنازة البطل عبر الشاشة الصغيرة فى جهاز بالمكتب، وكنا نخرج من مقر عملنا الى الشوارع مجموعة بعد مجموعة لمراقبة الوضع ثم نعود الى الوزارة وهكذا • أما أسرتى الصغيرة المكونة من زوجتى وأطفالنا الثلاثة فقد غادروا البيت منذ الصباح الباكر الى منزل (مدام مارى شيرجيـان) أســتاذة زوجتى فى علوم الموسيقى ، ليتمكنوا من مشاهدة الجنازة من الشرفة المطلة على ميدان باب الحديد • وقد سجلت ابنتى منار ذلك الحدث وكانت فى السادسة من العمر ، وذلك فى قصة كتبتها بعد ذلك بعشر سنين بعنوان (اللوحة) وضمتها الى مجموعتها القصصية الأولى (لعبة التشابه) • كتبت بأسلوب تيار الوعى فى تصوير لوحة وداع عبد الناصر العظيم :

« لا أدرى أين ذهبت ٠٠ أين ؟ أمى تشد على ذراعى ٠٠ لم الوداع ؟ ٠٠ وكان الشرفة ستصير بعد قليل سريرنا ٠٠ منزلنا ٠٠ ترى لم جئت الى هنا ؟ لسوف تصعد الرؤوس الباكية وحدها نحوى تتسلق الشرفة ، وأغرق فى دموعهم دون أن أراقب سير الصندوق المغلق بالعلم ٠٠ فلتتحجر قليلا تلك الدموع ، وتصير كنتوءات سور المدرسة المستفز ٠٠ ولأراقب ٠

ها هو الصندوق بلون بنى ٠٠ لون الحريق قبل اشتعاله وعند انطفائه ٠٠ لون الدم الفاسد من كثرة التخزين فى العروق ٠٠ انه يترنح كقارب وسط الأمواج ٠٠ كبؤبؤ كاذب فى عين براقة ٠٠ كبويضة ضائعة فى رحم قابل للعقم، ضيق مطلى بظلمة من الدهاليز البيضاء تسود عند الالتفاتات ٠٠

الرؤوس ضيقت المكان ٠٠ تشبثت بحديد الشرفة فى ذهول ٠٠ انها طوابير أخرى ليست كطوابير كل يوم ٠٠ نمل كبير أرملى عاجز عن الطيران ٠٠٠ انضمت الجموع فى هيئة أهرامات صغيرة ٠٠ تلون الكون بلون السماء الوردية الأولى التى تهبط فى جوف الدموع حين تجف ٠٠ يطاردون بعضهم بعضا وراء الصندوق ٠٠ الصندوق يهرب ٠٠ يغوص تختنق آهاته ٠٠ يصعد ٠٠ اتجاهاتهم متضاربة مجهولة مخيفة ٠٠ ضعيفة متكسرة ٠٠

يسقط كفى من كف أمى ٠٠ اختفى فى ظلام حناجرهم ٠٠ خيل الى أن أمى تتأملنى ٠٠ لكن عباءة الموت السوداء كانت تتسرب من بين الأبواب النحاسية فوق الجماهير حين يختفى الصندوق والنجمتان ٠٠ يضيق جفناى ٠٠ تضيق الطرق وجبهات الرمال ٠٠ عقارب الساعة تنقلب ٠٠ عيناه اللامعتان أبى ، وجهه ينخفض بالشجن تحنط ابتسامة جمال وكفه الكبير وهو يلوح لى ٠٠ نجمة لى ، نجمة له ، ونجمة مخيفة وهمية فى الأعلى تشده ٠

هذا الحديد ٠٠ هذا الحديد ! سجلت عند السور٠٠ لوحت للصندوق ، لعله يأتى الى ٠٠ كيف استلقى جسده بداخله ؟ ترى ما الملامح ؟ هل صار هيكلا أم ورقا أم حبوبا وطينا ؟هل يشعر بنا ؟ لعله يستطيع أن يرى من بالشرفات ، لكنه ابتعد ، فى نعش طائر بارز من شرفتنا ٠٠ صور الشرفة يتساقط كالوجه ٠٠ لوحت للأفواه المفتوحة بالصراخ ٠٠ اقتربت منى الوجوه ، وكلما اقتربت كان جسدى يستطيل كالنبات البرى ٠

وتعود الأمواج المتقلصة من عويل النساء واهتزازات الرؤوس لتأكل ملامح الوجوه والاستمرار ٠٠ كفى !! تكاثرت الخطوط فى كفى وتفرعت ٠٠ غناؤهم خيام قبلية ٠٠ أعناقهم تنحل ٠٠ أكتافهم تموج ٠٠ كل وحده فى صندوق لا مرئى ، وحده ٠٠ تحت العمارات التى تتكاثر ٠٠ ولا تتهاوى القصور ٠

ظلوا يسيرون بعضهم بعضا ٠٠ تتعارك الأيدى فوق بعضها ٠٠ ينحنون ٠٠ ينحنون ٠٠ شاحبين كالموتى السعداء ٠٠ اختفت أرجلهم ٠٠ صاروا رؤوسا ٠٠ أنجما ٠٠ غيبوبة ٠٠ صاروا بحرا وسارية ٠٠ سحابة صفراء منسية ٠٠ موجة ٠٠ وجها واحدا كبيرا ألفه شرفتنا ٠٠ صرخاته بذور التصدع فى وجه أمى ٠٠ فمه الأخرس كنت أنا ٠٠ عيناه كل لون يتلون فى أيام مصر ٠٠ فى الداخل ٠٠ فى الخارج المخيف ٠٠ مصر !! عرفتها !! أبى ٠٠ أهو أنت ؟ فى كل مغرب بعد أن تعود من عملك المرهق ، تكون عربة المدرسة قد ألقت بى بعيدا عن المنزل لأنى لم أقو على الصراخ كى يقربونى منه ، ثم أنسى ٠٠ أنام ٠٠ أسمع حفيف كفيك وهما تلامسان ضفائرى ٠٠ كنت بين هذه الجموع دون أن ترانى ٠٠ ولم أرك ٠٠ لهذا أحببتك » ٠

لم تكن (منـار) يوم أمسـكت بيد أمها فى الطريق الى مشاهدة جنازة عبد الناصر تدرى أن أباها سينتزعها من أحضان أترابها ومدرستها وبيتها ليطير بها مع والدتها ، فى مساء يوم ٢٢ سبتمبر ١٩٧٧ ، الى ذلك البلد البعيد هناك فى مدينة وهران حيث ستشهد مع أبيها وأمها وقع موت بومدين فى نفوس شباب تلك المدينة . ذلك اليوم الذى صورته فى نفس قصتها من طريق التداعى والارتداد الى الخلف عبر شظايا الذاكرة :

« جلس أبى فى صمت حزين يتأمل بدلا منى ، اقتحمت أمى غياهب العاصمة (الجميلة) للبحث عن عمل.. لم توقفها الثرثرات الغريبة .. لعلها – على النقيض منى – قد عرفت شبيهاتها من قبل.. فى المنزل أو فى مصر البعيدة التى كانت وكنت من قبل.. لم أدر شيئا .. لم توقف أمى النافورات المتدفقة .. يسعدنى حينئذ أنها طويلة القامة ، ولكنى فقدت صوتى ، وضاعت حروف الوداع فى جنازة الزعيم .. أحرقنا مراكبنا .. احترقت » .

لكأنما تنبـأت البنية بما سـيصير اليـه حالى بعد رحيل عبد الناصر بسبع سنين عجاف .. فقد هجرت « طيبة » وأحرقت مثـل طارق بن زياد مراكبى كأنـنى لن أعود الى مدينـتى يوما ، واحترقت بحسرة الفراق .. وحين مات هوارى بومدين انتـكأ الجرح ، جرح فقد ابن مصر البار . فكتبت فى رثائه يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٧٨ قصيدتى (الفارس الذى ترجل .. فى وداع بومدين العظيم) :

اليوم عبد الناصر الأمين مات مرتين
كى نعيشه ولا تموت ثورته
يستيقظ الآن جميع الشهداء

سيف صلاح الدين لم يعد لغمده
منتصرا عاد ·· وكان الأمس فى الموكب
انى قد رأيت وجهه الصبوح
يخفى دمعتين فى الرداء ثم يحمل ابنه
من ذلك الطود الذى يأتزر الرياح قادما
من العرين ·· من (معسكر) التى أودعها
أغانى الرعيان ·· صوت الفقراء المرده ؟
هل دقت الساعة وانشق القمر ؟
بل انه الحزن النبيل وانفجار الموج
فى (المرسى الكبير » يا بن أمى
يا رفيق دربنـا
ان الفدائيين أقبلوا
اليوم لا غالب الا الله
شـعبنا
قلت الفدائيين عادوا ؟
جاء من أقصى الديار فارس ملثم
يعرفه رضيعنا بالنجمتين فى الجبين المفتدى
يعرفه الصنوبر الجليل والزيتون
والأوراس فى ضوء الشفق
يسقى من النـدى
لترتوى كل البطاح والربى
والسـاقية
قلت : أبومدين ولى

وهوآت
وســيبقى
أتراه يبتســم ؟
بل خطبة الوداع يا صديق
ما تراه يسلم العلم ؟
عاش أبومدين للشعب يغني وهو يجني
وينادينا اذا عاد من الحرب لنبني
فلماذا النظرة النجلاء للغرب ؟
لماذا يد أوراس الى القلب تشير الآن
والعالم في عرس الشهيد ؟

يتهيا لوداع مطمئنا
ما تراها « العـالية »
تلثم منــه المنكبين
وخصلة من مفرقــه

تمسح عن ردائه غبار دربه الطويل
تضـم صدره اللهيف
لهفى لضم الشمل بالأحباب
يا قرة عين الشهداء
ويا امام الراحلين
قد تداعوا :
يا أبا الشعب سلاما لا تغب
لا تبتعد

ها انه جبينه العالي يؤم « العالية »
ليســتلم
يدخل محراب المجاهدين ·· يبتسم
يكاد ينشد القســم
فلم الروع بعينيه ؟
أخوف من فلول اردة الرقطاء
ان تصحو من الجحور
انصتوا لطيفه على القرى التى تلألأت
فى كفه البيضــاء
على المصانع التى توهجت بناره الخضراء
لا تجهشوا بدمعكم
تأملوا عاصفة النار كروما تنسكب
والرعد ·· صوته البعيد يقترب
فأنصتوا :
الليل ، فلنضرب ليبقى الشعب عملاقا
وتزداد الجبال الراسيات

هكذا ودعت وهران بصورتى البطل هوارى بومدين ، وكان فى وداعه وداعا مجددا للمليون وأكثر من شهداء ثورة الجزائر المعروفين والمجهولين ·· فقد سكنتنى وهران كما سكنتها ، وكانت عندى رمز الجزائر واحدى قلاعها الشامخة · وقد تحول أولئك

الشهداء الى ورود على خدود أطفالها ، والى أعلام خفاقة فوق ربوعها ومصانعها ومصافى بترولها ومزارعها التى انتزعها المجاهدون من براثن الاستعمار الاستيطانى الشرس · سلاما على وهران والذكريات ، سلاما على مساجدها وأضرحتها وقلاعها وشطآنها السابحة فى أضواء الشمس والبحر ·· سلاما على أهلها القدامى الأكرمين من علماء وشعراء ومقاتلين فى سبيل العقيدة والوطن والحرية ·· سلاما على معاهد العلم والصناعة الحديثة ·· على كرمها وزيتونها وكل ذرة من ترابها ·· سلاما على المدينة التاريخية الجميلة القابعة فى رقة وحنان على ضفاف المتوسط فى الشمال الغربى لعالمنا العربى ، تضفر جدائلها الذهبية فوق الرمال وترتل أنشودة الأجيال ·· سلاما على وهران ·

تلمسان بستان الفكر الاسلامي في الجزائر

من الأحداث الثقافية الهامة انعقاد الملتقى السادس عشر للفكر الاسلامي بمدينة تلمسان بالجزائر منذ السادس من شوال ١٤٠٢ هجرية حتى اليوم الثانى عشر منه (٢٧ يوليـة ـ ٢ اغسطس ١٩٨٢ م) • وكان الموضوع الرئيسى الذى دارت حوله المحاضرات والمناقشات تقويم حصيلة الدراسات الاسلاميه التى أجريت حول السنة النبوية باعتبارها المصـدر الثانى للتشريع فى الاسـلام ، والرد على افتراءات المستشرقين المغرضين ، ووضـع منهج علمى تقوم عليه البحوث الفقهية • وقد شارك فى هذا المؤتمر نحو ألف من العلماء المتخصصين العرب والمسلمين والبـاحثين والطلاب • وبلغ عدد الأساتذة الجزائريين مائتين وخمسين عملوا جنبـا الى جنب مع المفكرين القادمين من مختلف بلاد العالم • وتناول الملتقى دراسة السنة من حيث تبليغها ، وتدوينها ، والبحث التحليلى لكتب الحديث • وكان المحور الرابع للدراسة فهم السنة والعمل بها ، وذلك فى اطار ما تهدف اليه هذه الندوة التى تقام بالجزائر سنويا من التعريف بالفكر الاسلامى والتصـدى للغزو الثقافى الاسـتعمارى •

ويذكر احتضان مدينة تلمسان لهذا الملتقى ، وكذلك الملتقى الذى عقد بها فى سنة ١٣٩٥ هجرية (١٩٧٥ م) بماضيها التليد فى العصور الوسطى ، اذ كانت مركزا للفكر العربى الاسلامى ومنارا ثقافيا يقصده طلاب المعرفة طوال ثلاثة قرون تقريبا • وكانت تنافس بما بلغته من مكانة مرموقة مدن المغرب العربى ولا سيما فاس والقيروان ، بل مدن المشرق العربى أيضا • وقد هيأ لتلك المدينة العريقة ذلك المركز العلمى والحضارى عدة عوامل ، أهمها ما تتمتع به من موقع جغرافى استراتيجى ممتاز جعل منها مركزا تجاريا وثقافيا كبيرا يربط بين الشمال الأفريقى والأندلس ، وملتقى طريقين من أهم طرق المغرب العربى ، احداهما تصل الشرق بالغرب ، والأخرى تربط بين الشمال والجنوب ، وكانت تعتبر خلال مدة طويلة سبيل الذهب •

وبالاضافة الى هذه الميزات الجغرافية ، فان وفرة أراضيها الخصبة ومياهها العذبة جذبت اليها كثيرا من الأقوام التماسا لطيب المقام والحياة الرغدة ، وان كانت هذه العوامل قد جعلتها مسرحا للصراع فى العصرين الوسيط والحديث بين القوى السياسية المتنازعة ومطمعا للدول الأوربية ، فكانت محاصرة أو مهددة بالحصار فى كثير من الأحيان • وهدمت وأعيد بناؤها فى كل مرة على يد القوة الغالبة لتتخذ منها ركيزة ومستقرا أو نقطة وثوب للتوسع • وهكذا تعددت الممالك والدول التى عرفتها تلمسان ،اذ تعاقب عليها الرومان والأدارسة والمرابطون والموحدون والزيانيون والمرينيون ثم الزيانيون مرة أخرى ، وقد أعقبها عصر الاستعمار الفرنسى البغيض منذ نهاية الثلث الأول من القرن الماضى حتى اندثر على يد المجاهدين الجزائريين الأحرار ، واستقلت الجزائر سنة ١٩٦٢ م •

آثار الحضارة الاسلامية :

ومازالت فى تلمسان بعض آثار الحضارة الاسلاميـة التى ازدهرت بها فى عهود الممالك المتوالية • وفى مقدمة هذه المنشآت ذات القيمة التاريخية الاسلامية مساجدها ومدارسها ، وأقدمها الجامع الكبير الذى بناه المرابطون فى القرن الثانى عشر الميلادى ، وهو يشبه الى حد كبير مسجد قرطبة فى فنه المعمارى ولا سيما ساحة الصلاة والمحراب والقبتان • ومن أشهر مساجد تلمسان مسجد بلحسن وهو تحريف اسم ابن الحسن أخى العالم المشهور أبى اسحق ، وقد بناه عثمان بن يغموراسن سلطان الزيانيين ، ومسجد سيدى أبى مدين نسبة الى الفقيه شعيب أبى مدين الأندلسى الأصل اذ ولد فى اشبيلية سنة ١١٢٦ م ، ودرس فى فارس بالمغرب فى عهد الموحدين ، كما درس فى مدينة بجاية بالجزائر ، وكان زاهدا متصوفا • وكذلك مسجد سيدى الحلوى الذى بنى فى عهد المرينيين ، والحلوى هو الشيخ أبو عبد الله الشودسى الذى نشأ أيضا فى اشبيلية ، وكان قاضيا متصوفا ، طاف فى بلاد المغرب حتى استقر فى تلمسان فى أوائل القرن الثالث عشر • وثمة مساجد أخرى شيدت فى تلمسان خلال العصور المختلفة ، ولم يزل بعضها قائما حتى الآن مثل جامع أولاد الامام الذى يرجع الى عهد المرينيين • ولكثرة هذه المساجد تعد تلمسان بحق مدينة المآذن • ولولا ان الاستعمار الفرنسى أهمل شأنها ، ولم يعن الأتراك أيضا بترميمهما ، لاحتفظت المدينة بكثير منها •

وتضم مسجد أبى مدين وضريحه ومسجد الحلوى « قرية العباد » التى تقع فى الجنوب الشرقى من تلمسان على منحدر هضبة عالية • وهى تزخر بالآثار التاريخية التى خلفها السلطان المرينى أبو الحسن لتخليد العلماء والزهاد فى عصره ، وليدخل بصنيعه

هذا فى قلوب الأهلين لما عرفوا به من تقدير عميق لأهل العلم والصلاح ، ومن ارتفاع مكانة العلماء عندهم على مكانة الأمراء ·
وتحوى هذه القرية آثار قصر ومدرسة الى جانب المسجد ين والضريح · وقد ووري فى مقبرتها كثير من رجال الفقه والتصوف فهى أشبه بمقبرة العالية مثوى الشهداء فى الجزائر العاصمة ·
بيد أن بعض أهل المدينة ممن لم ينالوا قسطا من التعليم يبلغون فى تقديرهم لأولئك الرجال مرتبة تكاد تقرب من التقديس ، اذ يعدونهم من أولياء الله ويعتبرون كل ما يصيبهم من نعم من فيض بركاتهم ، ويعتمدون عليهم بعد الله فى حماية مدنهم ومنشآتهم ·
ومن ثم تختلط الحقائق بالأساطير فيما يتعلق بسير هؤلاء الزاهدين ، نظرا لما تنسبه اليهم العامة من أفعال كالخوارق ·
ولاشك أن انتشار مذهب المتصوفة فى عهد المرابطين والموحدين وسوء فهم العامة للأصول الشرعية قد ساعدا على ذلك · كما أن بعض أصحاب الطرق قد لعبوا دورا كبيرا فى هذا الشأن دعمه المستعمرون ومبشروهم بعد الغزو الفرنسى ، كما استغله بعض مؤرخيهم المتعصبين فى تشويه الاسلام والمسلمين ·

ومع ذلك ، فانه من الثابت تاريخيا أنه نشأت – الى جانب حركة التصوف ذات الاتجاهات المعتدلة والمغالية – نهضة ثقافية عربية اسلامية كبرى عمت تلمسان وسائر بلاد المغرب العربى ، تدل على ذلك المؤسسات الحضارية التى أشاد بها الخبراء والعلماء الأوربيون غير الحاقدين ، والتى تقع المدارس موقع الصدارة منها·
وقد كانت هذه المدارس التى أكثر الحكام المسلمون من بنائها مقصدا لرواد العلم والمعرفة من أهل الأندلس والمغرب ، وبفضلها غدت تلمسان احدى العواصم الثقافية الكبرى · فكان المسجد بمحرابه تجاوره المدرسة بمكتبتها · ولا يخفى الدور الاجتماعى الكبير الذى يقوم به المسجد الى جانب دوره الدينى · بل أن الجوامع الكبرى كانت أشبه بالجامعات العلمية كما هو الشأن

بالنسبة للجامع الأزهر بالقاهرة وجامعي الزيتونة في تونس والقرويين بالمغرب . ومن ثم يحق القول ان مدارس تلمسان كانت محل عبادة ومنجم علماء وفلاسفة ومثقفين في نفس الوقت . بل ان الزوايا قامت الى جانب المدارس والمساجد بدور في نشر اللغة العربية والاسلامية ، اذ لم تتعرض لها السلطات الفرنسية بل تركتها لأبناء الشعب ، ظنا بأن اقبالهم عليها من شأنه ان يلهيهم عن الاستعمار ويصرفهم عن السياسة والنضال الوطني ، فأفاد من ذلك طلاب العلم في الحفاظ على لغتهم وشخصيتهم .

مدينة العلماء :

ويؤكد الباحثون الأجانب أنفسهم أن تلمسان كانت تعد في الفترة ما بين القرنين الثاني عشر والخامس عشر للميلاد مدينة العلماء ، ومجمع المدارس ومزار الحكماء من مختلف أرجاء العالم العربي والاسلامي . وكان لحكامها مآثر غير منكورة في هذا الميدان ولاسيما في عهد بني زيان أزهى عصور تلمسان . اذ كانوا يبنون الى جانب قصورهم مساجد تضاهيها في عظمة البنيان في اغلب الأحيان . كما أولوا دور التعليم والقائمين عليها رعايتهم ، تقديرا لرسالة العلم ، واستجابة لما عرف عن التلمسانيين من اجلال للمعرفة . وقد أوقفوا على هذه المدارس اراضي وحدائق ومطاحن وحمامات للانفاق من ريعها على المعلمين والطلاب وصيانة المباني . ولم يحل الأصل البربري لهؤلاء الحكام المسلمين دون تشجيعهم التدريس باللغة العربية باعتبارها لغة القرآن والحضارة الاسلامية ، واحتفالهم بالمولد النبوي في قاعة القصر الزياني بين أبناء الشعب المتجمعين في حلقات أدبية يتبارى فيها الشعراء ويحضرها السلطان . ويبرز بين هؤلاء الحكام بصفة خاصة السلطان يغموراسن الكبير ، اذ كان شغوفا بالثقافة العربية ، مطلعا عليها ، حريصا على حضور حلقات الدراسة في الجامع الكبير

رغم أنه لم يكن يتحدث الا باللهجة البربرية ، واليه يرجع الفضل في اجتذاب علماء العرب المشهورين الى عاصمته تلمسان .

ومن أهم المدارس القديمة في تلمسان « مدرسة العباد » التي نوهنا بها آنفا، والتي كان ينقطع بها للدراسة الباحثون عن المعرفة ويلقى بها العلماء محاضراتهم . ولم يقتصر بعض هؤلاء العلماء على دراسة العلوم الدينية ، بل جمعوا بينها وبين العلوم الأخرى ، اذ لم يكن ثمة تخصص علمي في ذلك الزمان ، بل كان العلماء موسوعات جامعة حية ، تقاس مراتبهم بمعيار الشمول وسعة المعرفة مع الدقة وحدة الذهن والقدرة التعبيرية . وكان أكثرهم يجمعون بين العلم والعمل الصالح والزهد الذي يبلغ درجة التنسك ، ولا سيما أن النساك كانوا منتشرين آنذاك في ربوع المغرب الكبير ، وقال عنهم مستشرق في دراسة علمية موضوعية « انهم يحسنون التوفيق بين العلم والتخيل وبين التقشف والعبادة » . ومنهم من كان فارسا مجاهدا في الحروب . ولعل ذلك من أسباب الظاهرة التي ذكرناها من قبل ، وهي نظرة البسطاء من الناس الى هؤلاء العلماء الورعين البسلاء بصفتهم أولياء الله ، وأحبابه، وحماة مدينتهم الذين يصدون عنها غائلة المغيرين. وتناقل الناس عديدا من الروايات التي تجمع بين الواقع والخيال في مآثر هؤلاء الرجال الأبطال ، ويكفي أن يذكر منهم « سيدي محمد بن علي » الذي قاد ثورة التلمسانيين ضد الأتراك في القرن السابع عشر .

وقد ذكر المؤرخان ابن مريم والتنسي (القرن الرابع عشر الميلادي) في مؤلفاتهما قائمة تضم أكثر من ثلاثمائة عالم عاشوا في تلمسان، وأمسكوا بزمام حياتها الثقافية في العصور الوسطى، ومن بينهم الحافظ بن مرزوق ، وأبو عبد الله الشريف ، وابراهيم المصمودي ، وسعيد العقباني ، وابن ذكرى ، والابلي ، ومحمد ابن

عبد الكريم المغيلي ، وابن يحيى الونشريسي • وجلهم تعمقوا في دراستهم الفقهية ، وتوسعوا في العلوم الأخرى ، وصنفوا مؤلفات مازال بعضها يحمل أفكارا لم يتجاوزها عصرنا • ومنهم من شغل مناصب هامة في العواصم العربية القديمة كفاس وغرناطة وتونس والقاهرة ، مثل مناصب الفتوى والقضاء والتدريس •

ويحظى الحافظ بن مرزوق بمكانة خاصة بين هؤلاء العلماء ، وقد عاش بين سنتي ١٣٦٤ ، ١٤٣٨ م ، وعرف على نطاق واسع في تلمسان ، اذ شرح مؤلفات العالم الفيلسوف اليونانى سقراط، وألف كتابا في الفتوة ، وتخصص في تفسير القرآن ، ونظم قصيدة بعنوان « البردة » • وتدل هذه المؤلفات جميعا على سعة ثقافته •

ابن خلدون والمقرى والسنوسي :

ومن أبرز الشخصيات التاريخية التى عرفتها تلمسان المفكر العربى الاسـلامي الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذى يعد من العبقريات النادرة في العصور الوسطى (١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) ، اذ وضع لأول مرة أصول فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع ، وله أفكار تدخل في صميم الفكر الاقتصادى وان لم تشكل نظرية اقتصادية بالمعنى الحديث • وقد تنقل في بلاد المغرب والأندلس، ثم أقام بتلمسان حيث شرع في تأليف مصنفه التاريخى الكبير : « العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أخبار العرب والعجم والبربر »• وقد أتمه وكتب مقدمته الشهيرة ـ على أرجح الأقوال ـ فى قلعة ابن سلامة بقرية تاقزوت التابعة لولاية تيهارت بالجزائر ، وذلك بعد ان غادر تلمسان وقبل أن يتوجه الى القاهرة • وهو يذكر أنه خلال اقامته في تلمسان قصد الى مدرسة العباد فى ضواحيها، ملتمسا فيها الاعتكاف قليلا والتقاط الأنفاس من عنـاء رحلاته الطويلة وعبء المناصب الادارية التى تولاها، ومواصلة التحصيل،

وقال فى ذلك ما معناه : « لقد توجهت الى مدرسة الشيخ ابى مدين فرارا من الشئون المدنية وطلبا للدرس بقدر ما يسمح لى بذلك » ·

ويلى ابن خلدون فى الاهمية العلمية لمؤلفاته الجغرافى المؤرخ أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني المعروف بالمقرى المتوفى سنة ١٤٠١ هـ (١٦٣١ م) · وكان أديبا مشاركا فى علوم الكلام والحديث والتفسير · وقد ولد فى تلمسان وتوفى بمصر حيث كان قاضيا · وأشهر مؤلفاته كتابه فى تاريخ ممالك الأندلس والمغرب « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، ومازال يدرس حتى الآن فى الجامعات العربية · وله كتاب بعنوان « تعاليق حول مبادىء الحق » · ومن علماء تلمسان الشيخ محمد ابن يوسف السنوسى (١٤٢٨ – ١٤٩٠ م) الذى قال عنه أحد المستشرقين انه قدم للعلم ما قدم ابن خلدون للتاريخ وعلم الاجتماع · وقد أسس تيارا فلسفيا انطلاقا من مبدأ وحدانية الله · ومن مؤلفاته كتاب العقيدة فى عدة أجزاء (العقيدة الكبرى، الوسطى ، الصغرى ، وأخيرا المقدمة) · كما ألف فى علوم الطب والرياضيات والفلك · وقد خلف أكثر من أربعين مصنفا فى هذه العلوم وفى المنطق والنحو ، الى جانب العلوم الدينية والتصوف · وهو يعد فخر الفكر الاسلامى فى أواخر القرن الخامس عشر · وقد توفى فى بلدته تلمسان وله ضريح يزار فى قرية العباد · ومن تلامذته عبد الكريم المغيلى الذى توفى فى مدينة كانوا (نيجيريا) حيث أسس أول جامعة اسلامية فى هذه المدينة ·

ويقترن اسم الشيخ السنوسى باسم الشيخ أبى عبد الله الشوديسى المشهور بسيدى الحلوى ، اذ كان كلاهما من شيوخ المدرسة التلمسانية العريقة رغم ما يفرق بينهما من فاصل زمنى · وقد ولد الشيخ أبو عبد الله ، وأقام فى أشبيلية بالأندلس حيث اشتغل بالقضاء بفضل تمكنه من علم التشريع ، واعتنق المذهب

الصوفى • ورحل الى المغرب ثم الى تلمسان فى القرن الثالث عشر ، ودفن فى مقبرة العباد حيث أقيم له ضريح ومسجد باسمه • وقد عرف عنه أنه من تلاميذ ابنى الامام محمد التنسى والشيخ الابلى ، ذلك العالم الذى كان له دور فى ترجيح تكوين ابن خلدون • ويروى المؤرخون عن الشيخ أبى عبد الله أنه درس مبادىء المنطق اليونانى والحساب والهندسة والطب والفلاحة والموسيقى • وكان طلب العلم شغله الشاغل • ومن علماء تلمسان الذين جمعوا بين العلوم الدينية والعلوم الأخرى أحمد أبو يحيى الحباق ، اذ تخصص هذا الفقيه فى علم الاسطرلاب (الفلك) ، وترك مؤلفات قيمة مازالت تدرس فى الجامعات الأوربية منها « رسالة السفر » وتعليقه على كتاب الفقيه وعالم الرياضيات المراكشى أبى العباس أحمد بن البناء (١٢٥٨ ــ ١٣٣٩ م) « تلخيص أعمال الحساب » •

النهضة العلمية منذ الأدارسة حتى الزيانيين :

لقد ترسم هؤلاء العلماء خطى الرعيل الاول من علماء تلمسان القدامى ابتداء من القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) حينما كانت تحمل هذه المدينة القديمة اسم « أغادير » فى عهد الأدارسة الذين بنوا فيها أول مسجد كبير بعد الفتح الاسلامى الذى قاده عقبة بن نافع قادما من مدينة القيروان التى أسسها فى تونس ، وجعلوا منها مركزا لنشر مبادىء الاسلام عبر المدن والقرى فى المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) ، ثم أعقبهم المرابطون فى أواخر القرن العاشر الميلادى • وقد شهدت تلمسان فى عهدهم ــ ولاسيما فى ظل حكم يوسف بن تشفين مؤسس دولتهم ــ ازدهارا بعد معاناة وحصار • وكان أول أعماله بناء عاصمته « تاقرارت » فى موقع تلمسان الحالى ، واقامة الجامع الكبير ، واجتذبت تلك النهضة التى عظمت فى عهد بنى عبد الواد

« الزيانيين) واستمرت من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر ، اقطاب الفقه والفكر من شتى البلدان ٠ فوفد الى تلمسان الشيخ عمران أبو موسى المشدالى (٦٧٠ ـ ٧٠٥ هـ) ، وكان يدير بها المدرسة التاشفينية ، وهو شيخ مشايخ ابن خلدون ، وكذلك الشيخ اسحق بن ابراهيم التنسى الذى توطن فيها فى عهد يغموراسن مؤسس الدولة الزيانية ، وكان يلقى دروسه بمسجدها ٠

وبفضل هذا الاضطراد فى المجال العلمى والتعليمى بالمساجد والمدارس ، ابتداء من محو الأمية والوعظ والارشاد ، وبث تعاليم الفقه والتصوف حتى التثقيف بالمعنى العام ، وتواتر العلماء طبقة بعد طبقة فى سلسلة لم تنقطع حلقاتها عدة قرون ، أرسيت تقاليد فى المجال الثقافى والفكرى لم تقو على محوها كوارث الحروب التى لحقت بالبلاد ٠ فكان التلمسانيون ينبعثون بالعلم والعرفان من بعد موتهم فى الدمار ، وكأنما مدينتهم طائر الفينيق الذى ينتفض بين ركام الرماد المحترق ، منطلقا الى الحياة، محلقا فى أجواء الفضاء ٠ ونرى مصداق هذا الواقع الثقافى فى شهادة شاهد من الفرنسيين لا يخلو من التعصب للعهد الاستعمارى والتجنى على العصر التركى ، وهو المستشرق « الفريد بال » ، اذ قال فى عام ١٩٢٠ : « لازالت تلمسان مركز الثقافة ٠ ويمتاز المسلمون فى هذه المدينة بحياتهم الثقافية لا عن سكان الأرياف فحسب ،بل عن مسلمى المدن الأخرى أيضا » ٠ وبعد أن نسب هذا المستشرق الى الأتراك وحدهم مسؤولية ما ران فى عصرهم على بعض المناطق من خمول ثقافى ، متجاهلا الجانى الحقيقى وهو الاستعمار الفرنسى ، استطرد قائلا : « واليوم أيضا ، رغم الضعف الثقافى الناتج عن ثلاثة قرون ، فانه يمكن العثور على عدد كبير من المثقفين المسلمين وبعض العلماء فى تلمسان ٠ وانك لتجد فى أحيان كثيرة بقالا ، أو بائع تبغ ، أو حلاقا ، منهمكا فى

مطالعة نص تاريخي أو أدبي ، أو ديني ، أو جزء من ألف ليلة وليلة أو مجموعة أغان ، ريثما يأتيه الزبائن » ·

وقد كان من نتائج هذا المناخ الثقافي الذى ساد البيئة التلمسانية ، أنه رغم المحو الاستعماري المنظم لمقومات الشخصية التاريخية لسكان المدينة ، فقد بقى اتصالها وثيقا بماضيها العربى الاسلامى ، واستطاعت تكوين تراث غني مكنها رغم تلك العقبات والالتواءات من مواصلة حياة ثقافية زاخرة قيمة ، خلعت طابعها التهذيبى على الكثرة الغالبة من أهلها فى أوقات فراغهم وفى معاملاتهم ، بعد أن كان ذلك وقفا على طبقة الأثرياء · وقد كان هذا التراث الثقافي هو القاعدة التى شادت عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الصرح التمهيدى للنهضة العربية الاسلامية فى الثلاثينات من القرن العشرين ، فشيدت فى تلمسان مدرسة باسم « دار الحديث » افتتحها الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس الجمعية، وأدارها من بعده نائبه الشيخ البشير الابراهيمى، وكانت تدرس فيها اللغة العربية ، الى جانب الكتاتيب ، وقد تخرج فى هذه المدرسة وتلك الكتاتيب كثير من أبناء جيل الثورة الجزائرية التى اندلعت فى الخمسينات ·

كما أنشئت فى تلمسان بجهود فردية جمعيات دينية ثقافية ، أهمها جمعية أصدقاء الكتاب سنة ١٩٢٦، وكانت مكتبتها مركزا للتنوير وتبادل المصنفات ، وملتقى لطلاب المعرفة ، بل كانت هذه الجمعية أيضا مدرسة للتربية الوطنية ، وبث روح الصمود فى مواجهة العدو ، فكان التلمسانيون يقصدونها بحثا عن الوسيلة التى تمكنهم من الاحتفاظ بشخصيتهم العربية الاسلامية ، من خلال الهامش الضئيل الذى تركه الاستعمار ، وهو تعليم مبادىء الدين واللغة العربية ، وذلك قبل أن يستبدل بهذه السياسية نهج القهر والتنكيل · ولقد منحت جمعية أصدقاء

الكتاب النور لجمعية أخرى انشئت باسم « أصدقاء الطالب » وكانت مهمتها تقديم المساعدة المادية للشبان الجزائريين الذين وصلوا الى مرحلة التعليم العالي ٠

واليوم تؤتي البذور القديمة والرعاية الحديثة ثمارهـا ، فتتضاءل الامية بفضـل التعليم المجاني وتنفيـذ خطط التنمية الاجتماعية ، وتتزايد المدارس بمختلف مراحل التعليم ، وينشا مركز جامعي سنة ١٩٤٧ يضـم في هذا العـام ١٧٠٩ طالبـا ٠ ويصدق القول ان تلمسان اليوم التي احتضنت ملتقى الفـكر الاسلامي مرتين، هي ابنة تلمسان الأمس التي دافعت عن مقوماتها العقائدية واللغوية والثقافية ، وخاضت معارك طاحنة في سبيل الوطن ، واستحقت ــ بمن أنجبت من مفكرين وباحثين تجاوزت شهرتهم أرضها الى أرجاء العالم الاسلامي ، بل الى بلدان كثيرة خارج هذا العالم ــ أن تسمى عاصمة الفكر الاسلامي جنبا الى جنب مع القاهرة وفاس والقيروان والمدن الأندلسية في العصر الوسيط، ومازالت كذلك حتى اليوم ٠

مع الأدباء العرب
في غابة الصنوبر بالجزائر

مرحى يا أحباب الكلمة يا أبناء الحرف السيف الباقي لنا : حد باتر وحد مثلوم · حين يجف الأكسجين في رئة هذا الوطن المترامي كجناحي نسر قديم تعتريكم رعشـــة النبـــوة ، فتميلون فزعين على الجسد المسترخي العـــانى تنفخون فيه من روحـــكم ، وتسكبون أنفاسكم حتى الرمق الأخير ليبعث « أوزير » حيا محطما أغلال « ست » شقيقه الطاغوت ·· من رماد « الفينيق » ينطلق الطائر المتمرد ، مدويا في صرير أقلامكم ، مفتحا بشباتها الجفون الناعسة في بساتين الشفق الأرجوانية النجيع ·

حين وفدتم الى الجزائر من أدنى الأرض وأقصاها ، هابطين من بطون الطائرات التى لم يعرف بعضكم مقـــاما لهم غيرها وغير الفنادق التى تشبه القلاع في غلوائها حين عز عليهم الوطن وضاقت بهم الأرض على سعتها ، لم يكن يونس قد شق بعد بطن الحوت ،

وانبجست ينابيع الدفء الانسانى فى عناق اللقاء بمن تعرفون من قبلُ ، ومن لاتعرفون الا بالأسماء التى صحبتموها أعواما وأعواما . ولكن الهموم كانت تعلو الأسارير ـ كآبة عجزتم عن اخفائهـــا . سحب النار من الخليج والجبل كانت تلفح جباهكم العريضـــة ، والمر كان المذاق على شفاهكم ، وحفنة رماد من الاحباط من قبل أن تحمل الينا زرقاء اليمامة بشرى انتصار الرجال فى بيروت والجبل .

ما كان أشق على الأنفس أن تتجمع من بعد الشتات لتصـــاب بقشعريرة البحوث الجليدية الأكاديمية التى ألقت فى اليوم الأول وان بلغ كثير منها مستوى علميا رفيعا ، على حين يشتعل العالم من حولهم ومن فوق أرجلهم ومن تحتهم ، ويفجر أعداء الانسان من تجار الحروب وكهنة الصهيونية والعنصرية النار المشؤومة فى جســـد الحضارة المتهالك من كثرة ما عبثت به الأيدى الآثمـــة ، وفلسطين المحتلة تتوارى عن الأضواء كأنما كان عبثا ما سكبه مئات الآلاف من الشهداء من دماء . ويفغر الوحش الأميركى فكيه الشيطانيين ليلقف البقية الباقية من عرق الشعوب ودمها فى عالمنا الثالث المنكوب .

هكذا بدأ المؤتمر شاحب الوجه بسبب انفصال عنوانه « الأدب العربى بين الثقافة والاعلام » عن الواقع الحى الذى تعيشه الجماهير وتصلى بحره بل جحيمه . ولكن اللهب الذى انبعث من خـــلال المناقشات الساخنة التى أعقبت المحاضرات ما لبث أن كسر أكوام الجليد المتراكمة من القمة حتى السفح ، وجاءت التوصـــيات التى صادف اصدارها فى التوقيت يوم الغاء اتفاقية ١٧ مايو بين السلطة اللبنانية والعدو الفاشى المغتصب ، لتنزل بردا وسلاما على الأدباء الغاضبين الملتزمين بالدفاع عن أمتهم فى قيمها الانسانية وعن الانسان العانى فى كل مكان .

وفى الكواليس ـ كالمعتاد ـ أسفرت الحقيقة عن نفسها لأن الدبلوماسية التى يرتديها أكثر الأدباء فى المحافل تذوب أقنعتها الشمعية تحت شمس الظلال ٠ ولا ينفى ذلك أن كثيرا من الحواجز الفاصلة بين القاعة الرئيسية التى ينصب فيها المنبر الكلامى وبين الغرف والردهات التى يلتقى فيها الكتاب والشعراء قد تضاءلت أو تهاوت فى المؤتمر ، بفضل الاحساس بالمسؤولية والرغبة فى الارتفاع بالتوصيات ـ وهذا أضعف الايمان ـ الى مستوى الأحداث التى تفرض نفسها على الفرد العادى ، فكيف بالأديب وهو ضمير الشعب كما أعلنت اللافتات العريضة التى طالعتنا منذ هبطنا من مطار هوارى بومدين فى الجزائر البيضاء حتى فندق ماء الزعفران الذى خصصه البلد المضيف للأدباء ، وقصر الأمم فى غابة الصنوبر الذى أقيم فيه المؤتمر ٠

ما أجمل ذكريات المكان والزمان والاخاء العربى الانسانى التى احتقبتها فى عودتى الى وهران ، والتى يجمع المؤتمرون دائما فى أعقاب كل مجمع أو مهرجان أنها خير متاع الرحلة ٠ ما أجملها مهما شابها من مشاكل التنظيم التى تبلغ حتى ضياع الضيف أحيانا ٠ فهذا المازافران الرائع ـ هكذا يطلق عليه باللغة الفرنسية تحريفا، ويبقى كذلك بالعربية دون اعادته الى أصله ـ هو « بيت جحوى » أو قصر « اللابرانت » الذى أقامه أحد الفراعنة فى الفيوم جنوبى مصر ليكون متاها لنزلائه ٠ مساحة كبيرة تسع أكثر من ألف حجرة ومرافقها ولكن مخطط المبنى يوجز الغرف الخمسمائة فى حيز صغير وفق تنظيم أو لاتنظيم عجيب ، حتى ليصبح بلوغ الجنة عبر الصراط أهون من بلوغ الضيف حجرته ٠ مثل الطفولة المبهورة التائهة فى عالم الأساطير كنا نتلاقى ونحن نبحث عن غرفاتنا ٠٠ نطوف ما نطوف ويسأل كل منا من لايعرف ٠٠ تساؤلات ولا أجوبة ٠٠ ونضحك من فرط المفارقات ونحتفظ فى ذاكرة الوجدان بقسمات

من نلتقي به لأول مرة من طول التقاء الوجوه في رحلة البحث المضنية بعد ساعات من الاستماع والمناقشة ٠

المسؤول ليس بأعلم من المسائل ، والمنظمون شعراء من شباب الجزائر والعبء جسيم ولا عهد لهم بالتخطيط والتنظيم ، وجزائر الدولة مازالت في بعض المجالات على فطـرة الثورة ، فلا خبـرة بالبهرج البروتوكولي لأن العبرة دائما بالمضمون ٠ وبلد الشهداء هي التي فتحت ذراعيها للقاء مؤتمر الشعراء والكتاب بعد بحث مرير عن دولة عربية تحتضنه ٠ وحين تتعايش مثلي مع أبناء البلد العربي الذي قدم أكثر من مليون شهيد فداء حريته وكرامته وعروبته لابد أن تبحث طويلا وأن تصبر طويلا حتى تعرف فتعذر وتقدر ٠ فعذرا وصبرا يا أشقاء اليمن المكرمين ٠

هاهو المتوسط أمامنا ، وهو ليس بحر طارق فطارق لن يعود وما كانت الأندلس بأرض عربية فقد انتهى عهـد الامبراطوريات ، ولكنها الرمز والعبرة ، وكم من فردوس مفقود نشهده اليوم ونبكي عصر ملوك الطوائف فقد كان فيهم من عبـاد الله في أرض الله أو اثنان هل أقول ثلاثة ؟ أما اليوم فيا لعباد الله في أرض الله وكم من عبيد ٠ أقصر ياقلب فها هي أذرع الثوار فداء للوطن والأمة والشعب تسد عين الشمس ٠٠

لاتقوى كل مواجد النفس وشواغل العـــالم أن تحجب طيف الشاطيء الجزائري على البحر الأبيض ، والنخيل الباسق ، عن عين الشاعر التي تشهده لأول مرة ، ولاعين من يتأمله مثلي مرات ومرات٠ قد تفتقد يد الانسان الصناع بفن السياحة كمـــا نعرفه في تونس أو فرنسا ٠ ولكن الطبيعة الساحرة المسحورة غنية عن مثل هذه اليد ٠ كم من نفس عذبت وفنيت لاستخلاص هذا الساحل المترامي

على مسافة تربو على الألف كيلومتر من براثن الغزاة ٠ هنا آلاف من شجر الأرز ، أكثر من اسكندرية ٠٠ أروع من « الكوت دازير » ٠٠ مزيج من سحر البحر الأبيض وروعة الغابات الافريقية والنخلات العربية ٠ في انتظار الحافلة أن تستقل بركبها تسرح العيون قليلا وتود حين تودع لو تعود ٠ حلم لا أبهى ولا أروع ٠

عود على بدء في قاعة نادى الصنوبر ، وتتلى علينـــا قرارات أمناء اتحادات الكتاب ، فتحظى بالموافقة من طريق التصفيق لمن وقع عليهم الاختيار في مناصب الأمانة العامة ٠ لاصـــوت يعترض في العلن ٠ انها الديمقراطية اذن تلك التى نحترق لكى تولد مرة واحدة على الساحة السياسية في كثير من البلدان ٠ ولاشـــك أن لانعقاد المؤتمر بالجزائر أثرا في سيادة المناخ الديمقراطى ، وفي التخفيف من حدة قاعدة التوازنات المرعية دائما في الاتحاد العـــام للأدباء والكتاب العرب ، بحكم طبيعة تشكيل الاتحادات الوطنية التى يتألف منها الاتحاد العـــام ، تلك الطبيعة التى كان لها أثرها السلبى في تمثيلنا ــ نحن المدعوين بصفة شخصية ــ باللجان ورئاسة الجلسات وأماناتها والهيئات المنبثقة من الاتحادات والتى عهد اليها صـــياغة التوصيات ٠ فلم يكن أمامنا الا أن نشترك في المناقشات العامة وأن نبرق بآرائنا دون أن نرعد ٠ لاضـــير ، فقد تحقق ماكنـا نبغى اذ انعقد الاجماع ، على أن أقوى ما أصـــدره الاتحاد العـام للأدباء والكتاب العرب من توصيات خلال السنوات الأخيرة التى اشتد فيها الصراع واستحكمت الأزمة بعد أن توالـــت الانهيارات في البنيان القديم ، ولا شك أن مرجع ذلك الى الأصوات الصادقة الشجاعة الملتزمة بالقضايا العربية والمؤمنة بأن في مقدور أى شعب مهما قل عددا وعدة أن يدحر أكبر قوة غاشمة اذا أسقط مناضلوه الحاجز الوهمى بين الحياة والموت ٠٠ وتلك حقيقة دل عليها تاريخ الجزائر التى عقد على أرضها المؤتمر ، وصـفع بهـــا المتساقطين والمترددين

أبناء الشعب اللبناني الصغير عدداً حين قهروا أعتى القوى ، ومايزال المناضلون الفلسطينيون وسوف يستمرون رغم الحصار الصهيوني يشقون طريقهم الى الحرية بالدم الطهور الغزير .

سلمت درويش ياشاعرنا فقد افتقدنا صوتك الرائع المقاوم .. صوت فلسطين أشرف الأوطان .. صـــوت بساتين يافا ونابلس والخليل وجبل الكرمل وساحات القدس ، تسافر اليها عبر معين أجنة التكوين الذى تفجره أشعارك ذات المذاق المر العسلي . أشعارك المرصعة برذاذ النجوم الحمراء .. أشعارك الغزالات الفلسطينية المجنحة .. كنا ننتظرك .. سألنا عنك خالداً ومريداً وأحمد .. سألنا يحيى .. سألنا كل من نعرف ومن لانعرف .. أنت تعانى طيف الدم المهدر الى غير نهاية .. أم تراه الجرح القـــديم الجديد وحزنك على الرفاق الذين يذهبون ولا يعودون ؟

وغابت عنا ــ فبهتت في عيني وفى قلبي الأضــــواء ــ وجوه حبيبة .. رحل نجيب سرور ولم يشهد مثل هذا المؤتمر مرة واحدة فى حيـــاته ــ وهل يحتـــاج الشعراء الحقيقيون الى مؤتمـــرات ومهرجانات ؟ ــ وأعقبه خليل حـــاوى وتوالت الشهب فى الانطفاء بمثل سرعة الأحداث وايقاعها الكئيب .. صلاح .. أمل دنقل وتكبر الفجيعة بموتك يا « بسيسو » أيها الطائر الفلسطينى .. يا شجرة تموت واقفة .. وتعلن نبأ موتك يا « معين » الأسلاك التى تتحول الى أفاع تنهش لحم اخوتك ولا تتأثر كثيراً الأعصـــاب المرمرية ، وتستقبل نعيك بنفس البرودة التى استقبلت بهـــا نبـــأ انفجار الرصاص فى رأس خليل حاوى .

أعزيك أم أعزى نفسى يا « سرور » الألم العظيم ٠٠ مثلك أنا حضورا وغيابا وبيننا جسر رهيف ٠٠ وداعا أيتها المؤتمرات ٠٠ نسيتم أيها القائمون بالأمر فينا فدعينا مرة يتيمة فى مهرجان الشعر الرابع عشر بدمشق ثم تذكرتم فأنسـيتمونا فى اليمن ، وعدتم الى الجزائر فى عامكم هذا فتذكرتم أن تعهدوا الى أدبائها بدعوتنا ٠ وداعا أيها المؤتمرون ٠

ذكريات مصرية جزائرية

- ★ ليلة التقى حفيد البطل الجزائرى الأمير عبد القادر بجورج ابيض فى باريس ٠
- ★ فاطمة رشدى ويوسف وهبى على أرض الأوراس ٠
- ★ من حلقة المداح فى الأسواق والزوايا الى خشبة المسرح ٠
- ★ تونس تنازع مصر فى استنبات البذور الأولى للفن الرابع فى الجزائر ٠
- ★ بالمسرحية الضاحكة واللهجة العامية افلت رشيد القسنطينى من الرقابة الاستعمارية ٠

ارتبط المسرح العربى بالجزائر فى نشأته الأولى بالمسرح العربى فى مصر ، وتلك احدى الظواهر التاريخية المضيئة فى العلاقات بين أقطار العالم العربى فى المشرق والمغرب ، اذ استطاعت الشعوب فى أوائل هذا القرن أن تنفذ من ظلمات الاستعمار لتلتقى عبر كوى من

الأشعة الحضارية المتمثلة فى الشعر والقصة والمسرحية . وقد تجلت هذه الظاهرة فى الجزائر بوجه خاص لابتلائها فى ذلك الحين بأبشع صنوف الاستعمار ، وهو الاستعمار الاستيطانى الفرنسى الذى لم يقتصر على فرض القهر الاقتصادى والسياسى على أهلها ، بل تجاوزه الى القهر الثقافى ، بما اتخذه من تدابير جائرة لمسخ شخصيتهم واضطهادهم فى عقيدتهم الدينية وفى لغتهم وفى تراثهم الوطنى الأصيل وفى نظمهم الاجتماعية ، مستهدفا بذلك تجريدهم من مقوماتهم الأساسية التى تقف حائلا بينه وبين ادماجهم واذابتهم فى كيانه ، ومن ثم يسهل ترويضهم وتسليمهم بالواقع الاستعمارى ، وتحويلهم فى نهاية المطاف الى أدوات طيعة لأغراضه ، واستنزاف خيرات أرضهم التى بذلوا فى سقياها عرقهم بل دمهم ، فيغدو هو المالك المتسلط ، ويغدون العبيد المحرومين الغرباء فى ديارهم .

بيد أن هذه الصورة الواقعية المأساوية لم تحل دون اطلالة وجوه رائدة مشرقة من مصر العربية على الأفق الجزائرى ، كما تتطلع الفروع الى الفروع انطلاقا من انتمائها الى دوحة واحدة أصلها ثابت عريق ، أو كما تحن الأشلاء الى الالتئام فى الجسد الواحد . وهكذا كانت زيارة الامام الشيخ محمد عبده الى تونس والجزائر سنة ١٩٠١ م . ولم يمض غير عقدين من السنين حتى وفدت الى أرض الأوراس أول فرقة مسرحية عربية ، وهى فرقة جورج أبيض وذلك سنة ١٩٢١ ، وكانت تضم حسين رياض وعباس فارس ، وقدمت مسرحيتين لنجيب حداد هما (صلاح الدين الأيوبى) و (ثارات العرب) ، اقتبس الأولى من رواية (الظلم) للشاعر الانجليزى والترسكوت أمير الشعراء الرومانسيين فى القرن التاسع عشر ، وأدخل عليها من التعديلات الكثيرة ما جعلها توائم التاريخ العربى وتثير فى الأنفس ذكرى أمجاده القومية والانسانية . أما الرواية الثانية فقد اقتبسها حداد أيضا من رواية (العمدة)

لفكتور هيجو فيما يذهب بعض الباحثين النقاد والمسرحيين • وقدمت المسرحيتان باللغـــة العربيـــة التى كان يحرص جورج أبيض على استعمالها كل الحرص ، حتى يروى عنه أنه لم يكن يغتفر لممثل من فرقته لحنا مهما صغر فى اللغة نحوا أو صرفا أو نطقا •

وأول الغيث قطر ثم ينهمر

توالت من بعـــد ذلك الفرق التمثيليـــة المصرية على المسرح الجزائرى ، فوفدت فرقة عز الدين فى عام ١٩٢٢ ، ثم فرقة الممثلة اللامعة فاطمة رشدى نجمة المسرح فى ذلك الزمان وذلك ســـــنة ١٩٣٢ ، واستقبلت الجزائر فى سنوات ١٩٤٧ و ١٩٥٠ و ١٩٥١ و ١٩٥٢ يوسف وهبى على رأس الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى ، وكان من أعضائها البـــارزين زكى طليمات ، وقد بلغ عددهم فى الزيارة الثانية أربعين عضوا • ويكاد المؤرخون الجزائريون المعنيون بالأدب والمسرح يجمعون على أن جولة جورج أبيض لم تلق النجاح المنشود ، ويعزو بعضهم السبب فى ذلك الى ضحالة الثقافة الفنية لدى الجمهور مما أدى به الى ضعف تذوقه واستساغته للمسرحيات الوافدة ذات المستوى الرفيع • ولكن هؤلاء الباحثين يستثنون من هذا الجمهور فئـــة جد قليلة هم المعلمون والطلاب ، لم تقف جدة الفن المسرحى وغرابة ما يقدم منه دون تجاوبهـــم معــه • ويبقى لجورج أبيض فضل الريادة باستنباته أول بذرة فى حقل المسرح العربى بالجزائر • على أن الأهم من تجاوب النظارة المحدود — فى مجال التأصيل لنشأة ذلك المسرح برده الى الينابيع الأولى — هو تأثـــر أول مؤسس جزائرى لهذا الفن وهو الأمير خالد بجورج أبيض ، منذ التقى الرجلان فى باريس عام ١٩١٠ • فلا ريب فى أن هذه اللقيا قد أثمرت بعد ذلك باحدى عشرة سنة تلك الزيارة التى قام بها للجزائر رائد المسرح المصرى •

وكان من شأن لقاء حفيد البطل الجزائرى الأمير عبد القادر بجورج أبيض وتأثره به تفكير الأول فى انشـــاء مسرح فى بـلاده وانجازه هذا المشروع أو الحلم فى صورة بدائية أو جنينية • وقد اطلق الأمير خالد على الفرقة المسرحية التى أنشأها اسم (جمعية الآداب والتمثيل العربى) ، وقد ظهرت الى النور فى نفس العام الذى زارت فيه فرقة جورج أبيض الجزائر وهو عام ١٩٢١ ، ومضت دون أن تحقق نجاحا ذا قيمة الى تحقيق الهدف ذاته وهو ايقاظ وعى الفئة المثقفة – أيا كان مستوى هذا التثقيف واقترابه من التعليم العام – كى تدرك أهمية المسرح ورسالتـــه فى التغيير الاجتماعى ، دون الذهاب الى تحريضها بأسلوب مباشر أو غير مباشر على الكفاح الشعبى المسلح الذى مارسه الجزائريون بعد ذلك بثلاثين عاما ، اذ لم يكن الأمير خالد قائدا ثوريا بل كان داعية من دعاة الاصلاح ، ولم تكن الظروف قد نضجت بعد لانشاء مسرح سياسى يفتح العيون على المظالم التى كان ينوء تحت ثقلها الشعب الجزائرى ، ويحث على الجهاد فى سبيل اجلاء المستعمر الغاصب • ويتبين هذا الاتجـــاه الأخلاقى جليا فى النصوص التمثيلية التى أدتها الجمعيات المسرحية المتجولة التى أسسها الأمير خالد ، وهى رواية (ماكبث) لشكسبير بعد تعريبهـــا ، ورواية (المروءة والوفاء) لخليـــل اليازجى ، و (شهيد بيروت) وهى تمثيلية شـــعرية قصيرة محدودة الأحداث والشخصيات وعمادها الحوار ، وقد ألفها شاعر النيل حافظ ابراهيم •

وقد جاء فى محاضرة ألقاها الفنان المسرحى المخضرم الأســتاذ محمد اسطامبولى فى ١٦ مارس ١٩٨٢ بمدينة الجزائر العاصمة أن هذه التمثيليات قد تلقاها الأمير خالد من جورج أبيض بناء على اتفاق بينهما مذ التقيا بالعاصمة الفرنسية ، فى حفل أقيم بمناسبة حصول هذا الفنان المصرى الجنسية اللبنانى الأصل على اجازة الكونسرفاتوار من معهد باريس ، وأن خالدا قد أسس ثلاث فرق مسرحيـــة فى

الجزائر والمدية والبليدة ، تعد النواة الأولى للمسرح الجزائرى ٠ ويذهب الباحث الى أن المسرح قد ظهر فى الجزائر قبــل الحــرب العالمية الأولى ، اذ كانت هنالك فرق تتجول فى الأسواق والزوايا ٠ بيد أن ثمة مغالاة فى هذا الرأى ، اذ تثبت الدراسة التاريخية المعمقة أن الشكل المسرحى الذى يشير اليه الأستاذ اســطامبولى لم يكن الا امتدادا متطورا لصورة « المداح » الذى يروى الحكايات والنوادر فى الأسواق وهو واقف بين روادها ، أو فى الحفلات التى كانت تقام فى الزوايا ، أو لصــورة الفــرق الشعبية التى كانت تدعى (القوالة) وتقتبس فنها من (الدراويش) وتعقد حلقاتهـــا فى ضرائح الأوليــاء ٠

بيد أن الصحافة التونسية قد نشرت حديثا مقالا ينازع الفرقة المصرية فضل السبق فى غرس أول بذور المسرح فى الجزائر وإن كان الأسبق بين الأشقاء فى تبادل المعطيات الحضارية ، وذلك على خلاف ما أثبته ثلاثة باحثين جزائريين متخصصين فى هذا الموضوع وهم الكاتبان والممثلان المسرحيان علالو سلال على والمشهور باسم على ومحيى الدين بشتارزى والباحث الجامعى سعد الدين بن شنب ، فى كتاب (فجر المسرح الجزائرى) الذى أصدره الأول سنة ١٩٨٢ ، ومذكرات الثانى سنة ١٩٦٨ فى جزئها الأول والدراسة التى نشرها الثالث بالمجلة الافريقية أخيرا ، وكلهم يجمعون على أن المسرح العربى فى الجزائر كانت بدايتــه عام ١٩٢١ على يد جــورج أبيض الذى لم تعرف جولته نجاحا كبيرا ، ولكنها حفزت بعض الأدباء وأقلية من طلاب المدارس الى محاولة انشــاء مسرح باللغــة الأدبيــة فى سنة ١٩٢٢ ٠

أما منصف شرف الدين كاتب المقال المنوه عنه فيقول أن الجمــهور الجزائرى قد تعرف أول مرة على المسرح العربى فى الفترة من ٢٦ فبراير الى ١٤ مارس سنة ١٩١٣ حينما وفدت الى

الجزائر (فرقة الأدب التونسية) التى أسسها فى تونس قبل عامين من ذلك التاريخ ثلاثة مثقفين غيورين على التراث العربى الاسلامى وهم : حسن قلاتى المحامى المنحدر من أصل جزائرى وهو رئيس الفرقة والشاذلى قسطلى وعلى حرمى . ويقدم الكاتب - تأييدا لما ذهب اليه - صورة رسالة منسوبة الى الحاكم العام الفرنسى للجزائر وجهها الى الأمين العام للحكومة التونسية فى ٢١ فبراير ١٩١٣ ، ردا على طلب الترخيص لهؤلاء الثلاثة بالقيام بجولة مسرحية لفرقة الأدب التى يشرفون عليها عبر الجزائر ، وافادته فى هذا الطلب أن المحامى المذكور طرد من التراب التونسى الخاضع للوصاية الفرنسية سنة ١٩١٢ ثم أعفى عنه منذ ذلك الحين ، وأن عضوى الفرقة الآخرين يهدفان من زيارة الجزائر الى القيام بدعاية اسلامية ولهما مواقف مريبة - يعنى بذلك تحريضهما على السلطة - ابان الأحداث التى جرت فى تونس العاصمة سنة ١٩١٢ ، ومن ثم لا حاجة الى نصحكم - الخطاب موجه من أمين الحكومة التونسية - بوضع الجميع خفية تحت الرقابة .

ويستطرد الكاتب التونسى قائلا ان الممثل الاستعمارى فى الجزائر قد وافق بعد تردد على تلك الزيارة ، وان الفرقة قدمت على المسرح فى أربع مدن جزائرية هى العاصمة وتلمسان والبليدة وقسنطينه ثلاث مسرحيات - كاملة أو فصولا منها - وهى : (صلاح الدين الأيوبى) و (أوتيلو) و (الطبيب رغما عنه) . ثم كتب الحاكم العام للجزائر الى المقيم الفرنسى فى تونس أن أعضاء الفرقة لم يصدر منهم فى أثناء تجوالهم ما يثير الريب ، وان كانوا قد دأبوا على الاتصال بالمسلمين طوال هذا التجوال . على أن المشكلة التى يثيرها التحقيق الذى نشره منصف شرف الدين هادفا منه الى اعادة النظر فى وقائع تاريخية بلغت

مرتبة الحقائق المسلم بها ، هي قوله ان الاستعمار الفرنسى قد حفظ الوثيقة المشار اليها طى الكتمان ، طمسا للنجاح الذى حظيت به فى الجزائر فرقة الادب التونسية ، كما يستدل عليه من شدة اقبال الجمهورعليها لكثرة التذاكر التى بيعت فى المدن الأربعة ٠

وتكمن المشكلة الحقيقية فى طرح السؤال الهام الآتى : كيف نفسر ما جاء به الكاتب التونسى فى شأن حظوة الفرقة التونسية لدى الجمهور الجزائرى ، وذلك فى ضوء ما لقيته الفرقة المصرية من ضعف الاقبال عليها أو التجاوب معها من لدن هذا الجمهور نفسه بعد ذلك بنحو ثمانية أعوام رغم أن الأسباب التى أدت الى هذا الضعف لم تكن قد زالت بعد ، ونعنى بها ما أكده الباحثون الجزائريون فى أعمالهم الدراسية المنشورة من عجز الشعب عامة فى أوائل القرن عن فهم الحوار المسرحى المقدم بلغة عربية أدبية ، فضلا عن ما ذكره (أرليت روث) فى كتابه (المسرح الجزائرى) من الاعراض عن المسرح لأسباب تتصل بالعقيدة الدينية ، وان كان هذا الرأى مبالغا فيه ، ذلك أن المجتمع الذى فرضت عليه الأمية والابادة الثقافية التى لم يكف الاستعمار يوما عن ممارستها كان متشبثا بتراثه الثقافى واللغوى ، ولم يعدم بين صفوفه من يجاهد فى عناء لفهم المسرحيات المعروضة أمام أنظاره بالعربية الفصحى واستيعاب مضامينها كما يردد (علالو) فى كتاباته ومحاضراته ٠

ومن ثم يخلص كتاب التاريخ المسرحى فى الجزائر الى أن المسرح العربى الوافد من المشرق (مصر) يمثل المنبع الأصيل للمسرح فيها ، فلولاه لما عرفت هذا الشكل من الأشكال التعبيرية الدرامية ، باستثناء ذلك الشكل البدائى المعروف باسم مسرح القراقوز القائم على التعبير الشفوى الشعبى ، والذى شاع فى بعض المدن الجزائرية واستمر قائما حتى عام ١٨٤٣ ، وهو

التاريخ الذى حظرت فيه السلطة الاستعمارية ممارسة هذا النشاط وكان قد مضى على غزو الجزائر واحتلالها ثلاثة عشر عاما، ولم يكن العالم العربى (فى لبنان وسورية ومصر) قد اكتشف بعد المسرح في ذلك الحين ، بل وقع ذلك بعد خمس سنوات من العام المذكور بفضل ترجمة مسرحيات أوروبية أو اقتباسها واخراجها مثل مسرحية (البخيل) التى ترجمها (مارون نقاش) بعد اقامته زمنا فى أوروبا ثم عرضها على المسرح ٠

ولا يعير الباحثون جمعية الآداب والتمثيل العربى التى أنشأها الأمير خالد سنة ١٩٢١ وبدأ بها المسرح العربى الجزائرى اهتماما كبيرا ، وان كانت قد عرضت خلال أربع سنوات ثلاث مسرحيات من تأليف رئيسها على شريف الطاهر ، من بينها مسرحية عنوانها (خديعة افرام) كما جاء فى بحث للدكتور أبو العيد دودو ، وذلك بالنظر الى السذاجة التى اتسمت بها تلك المسرحيات نصا وتمثيلا ٠ وكانت تلك المسرحيات ـ حسبما قال الدكتور عبد المالك مرتاض فى كتابه (فنون النثر الأدبى فى الجزائر) ـ تعالج موضوعات اجتماعية غالبا ، كمشكلة ادمان الخمر وما ينشأ عنها من مضار ، أما المسرح بمعناه المتعارف عليه فقد بزغ الى الوجود سنة ١٩٢٦ بعرض مسرحية (جحا) التى ألفها بالعامية علالو ودحمون ، وقد أعيد عرضها مرارا لما لقيته من اقبال دل على تذوق النظارة ٠ وقطع المسرح العربى بالجزائر شوطا آخر على يد رشيد القسنطينى الذى كان يؤلف باللغة الدارجة أيضا ، ومحيى الدين باشتارزى الذى كان يقتبس من المسرح العالمي ويصوغ النصوص بالعامية مثل علالو ورشيد ٠

ويعد رشيد القسنطينى رائد الفن المسرحى الشعبى بالجزائر بفضل موهبته الكوميدية الفذة ، وق عرف هو وعلالو بتقديم الشعر الهزلى فى شكل (اسكتشات) مصحوبة بعزف موسيقى وأغان

أندلسية ، مما كان يخلب أسماع المشاهدين وألبابهم ، لأن كثرتهم لم تنل حظا من التعليم يتيح لها تذوق الأعمال الدرامية والنصوص المؤلفة أو المترجمة باللغة الفصيحة • وقد كتب رشيد القسنطيني عددا كبيرا من المسرحيات ، واليه يرجع الفضل فى ازدهار المسرح الشعبى ، وان لم تكتمل عنده عناصره طبقا للمفهوم الحديث لهذا المصطلح •

وفي رأى الباحث الجامعي محمد الأخضر بركة أن مسرح القسنطيني كان مقصورا من حيث المكان والجمهور والمضمون على المدينة ، فموضوعاته تتعلق بسكان المدن وعاداتهم وأخلاقهم ، وأنه لا يمكن ــ فى معرض تقييم أعمال هذا الرائد ــ الحديث عن مسرح وطنى ذى أبعاد سياسية ، باستثناء بعض المحاولات المحدودة والتي كانت وراءها ظروف مؤقتة • وهذا القول يناقضه بوعلام رمضاني بقوله ان رشيد القسنطيني عرف كيف يوظف طاقته الابداعية القائمة على الأسلوب الساخر تخطية للرقابة الاستعمارية، اذ يعتمد على شكل مسرحي يوهم أنه يستهدف التسلية والترفيه • كما عرف ــ ومثله الفنان المسرحي محمد تورى (١٩١٤ ــ ١٩٥٩) ــ كيف يخلق نوعا من العلاقة الروحيــة بين المسرح والجمهور ، بتوظيف اللهجة العامية كسلاح للنضال السياسى ، اذ وجد أنها الأسلوب الأسلم والأمثــل لتحقيق الهدف ، فقد كان أكبرهــم الاستعمار الفرنسى تذويب رمز الشخصية الجزائرية وهو اللغة العربية • وكان استخدام تلك اللهجة ضرورة أيضا بالنظر الى أمية الجمهور ، مثلما كان الأمر فيما يتعلق باســتخدام المسرح الهزلى لبلوغ غايتين هما اجتذاب هذا الجمهور ، والتحايل على السلطة المفتوحة العيون على الوطنيين والمتحفزة بهم والزج بمن ترتاب فى أمره فى السجون والمعتقلات •

واذا كان محيي الدين باشتارزي يقتسم مع رشيد القسنطيني السبق في ادخال المواقف الغنائية في المسرحيات التماسا لتجاوب الجمهور سواء أكان الغناء فرديا أم جماعيا ٠ فان القسنطيني ينفرد بادخاله أول مرة العنصر النسوي في التمثيل ، مما يدل على وعي اجتماعي يندر في تلك الحقبة التاريخية لخروجه على التقاليد الصارمة السائدة ٠

والى جانب المسرح الشعبي نشأت في خط متواز فرق تمثيلية تنضوي تحت جناح جمعية العلماء الجزائريين المسلمين التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة ١٩٣١ ٠ ومن ثم كانت رسالة هذه الفرق تعليمية دينية ثم تطورت فاتجهت الى التوعية السياسية غير المباشرة ، مواكبة في ذلك انبعاث الروح الوطنية والدعوة الى مناهضة الاستعمار من طريق التمسك بالأصول عقيدة ولغة وثقافة ٠ وقد غلب الطابع الانشائي التقليدي ــ بالضرورة ــ على لغة النصوص التمثيلية بالنظر الى طبيعة المنابع الثقافية التي يستقي منها المؤلفون موضوعاتهم وأسلوب صياغتها ، فجلهم ممن تلقوا العلم في جامع الزيتونة بتونس بعد أن أكملوا تعلم مبادىء القراءة والكتابة في زوايا تحفيظ القرآن بالجزائر ٠ وقد تخرج جيل الأربعينات والخمسينات من هؤلاء الكتاب في المدارس العربية الحرة التي انتشرت بعد انشاء جمعية العلماء وتزايدت بعد الحرب العالمية الثانية ٠ والكثرة الغالبة من كتاب التمثيليات من المعلمين ومديري هذه المدارس ، وقد توخوا بها توجيه التلاميذ وارشادهم الى القيم الانسانية في الاسلام لانشاء جيل جزائري صالح ٠

وهكذا نشأ المسرح العربي الجزائري ذي النزعة الاسلامية في أحضان دور التعليم ،وانتظمت حفلاته في ساحها ، لتحقيق هدفين تربويين هما تقويم ألسنة الناشئة وتدريبها على القواعد اللغوية والتعبيرية الصحيحة ، وغرس المبادىء الدينية القويمة

التى دعت الى احيائها جمعية العلماء فى نفوس التلاميذ ، والحث على محاربة البدع والأباطيــل التى أشــاعها (أصحاب الطرق) والمشعوذون فى ذلك الزمان ٠ ومن ثم يمكن القول ان هذا المسرح كان (وسيلة ايضاحية) فى المدرسة قبل أن يتطور حتى يغدو (مدرسة للشعب) كما كان منــذ فجر التاريــخ ، فقد اعتمد الأسلوب المباشر القائم على اسداء النصيحة والحكمة فى قوالب جاهزة ، ولم يملك بداهــة أية تقنيات فنية تؤهله للارتفاع الى مستوى المسرح بخصائصه المميزة ، اذ كان التلاميذ هم الممثلون ومعلموهــــم الملقين والمخرجــين العفــويين ، فلا علم بفن المسرح ولا خبرة ، فقد بدأوا من فراغ ، ولا ينفى ذلك فضل محاولتهم ذات القصد النبيل المتمثل فى الوفاء للتقاليد الدينية والوطنية واحياء التراث ٠

ولا يكاد يقع تحت حصر عدد المسرحيات الدينية التى عرضت فى الحفلات المدرسية تلبية لاحتياجات المواسم المختلفة مثل عيد المولد النبوى أو انتهاء العام الدراسى وغيرهما من المناسبات ٠ وأبرز كتاب المسرحيات الاجتماعية والتاريخية القــاص الشهيد أحمد رضا حوحو ، وان كان انتاجه أقرب الى التمثيليات التى قد تصلح للاذاعة منه الى المسرحيات بمعنى الكلمة ، وقد ألف سبع عشرة تمثيلية منها (بائعة الورد) و (أدباء المظهر) و (الأستاذ) و (البخلاء الثلاثة) و (صنيعة البرامكة) و (عنبة) ٠ وأهــم المسرحيات أو التمثيليــات الأخرى ــ كما ورد فى كتاب (فنون النثر الأدبى فى الجزائر) ــ (مضار الخمر والحشيش) لمحمد العابد الجلالى ، و (طارق بن زياد) لمحمد صــالح بن عتيق ، و (الأمر بأحكام الله) و (امرأة الأب) لأحمد بن دياب ، (الصراع بين الحق والباطل) لعلى مرحوم ، و (زينب الفتاة) لعبد الرحمن ابن العقــون ، و (المولد النبوى) لعبــد الرحمن الجيــلالى ، و (الناشئة المهاجرة) ، و (الخنساء) لمحمد الصالح رمضان ،

و (حنبعل) لأحمد توفيق المدني ، و (يوغورطة) لعبد الرحمن ماضوي ، و (الحذاء الملعون) لجلول البـدوى • وتغطى هذه التمثيليات وغيرها فترة تبلغ نحو ربع قرن ، وتمتد من الثلاثينات حتي أوائـل الستينات ، ويستوحى كثير منها — كما يتبين من عناوينها — من التاريخ العربى ، انطلاقا من الهدف الذى ترمى اليه ، وهو احياء البطولات والأمجاد الوطنية والقومية والدفاع عن الثقافة العربية التى كانت تحاصرها السلطات الاستعمارية الفرنسـية لتدمير الشخصية الجزائرية كما بينـا • ومن هذه التمثيليات ما يتناول تاريخ الجزائر قبل الفتح الاسلامى من خلال بعض الرموز من قادة البربر الذي قاوموا الغزو الرومانى مثل (يوغورطة) ، للدلالة على عراقة الشعب الجزائرى وكفاحه عبر العصور •

ولئن كان المسرح العربي التعليمي والإجتماعي لم يتطور طوال تلك الحقبة بأدواته المختلفة ولا سيما (الديكور) ، فإن المسرح الشعبي قد حقق خطوة على هذا الطريق في عام ١٩٦١ على يد علم من أعـلامه وهو ولد عبد الرحمن كاكي مؤلف ومخـرج مسرحية (القراب والصـالحين) وغيرهـا من المسرحيات • ويرى الباحث الأخضر بركة أن هذه المسرحية تمثل مولد المسرح الشعبي الجزائري بمفهومه الحديث ، فهي تجربة فريدة في البحث عن صيغة لاقتباس الأغنية الحركية الريفية بمواضيعها وأشكالها التعبيرية ، وتقديمها فـوق خشبة مسرحية عصرية • وهي تتميز بالوفاء لروح التعبير الشفوي الشعبي ، وتتلاءم وسائل اتصـالها مع السياق الثقافي الجزائري • وقد استغرقت هذه التجربة عشر سنوات (من ١٩٥١ الي ١٩٦١) استطاع بعدها ولد عبد الرحمن كاكي أن يبتدع لغة مسرحية تستمد قوتها وأصالتها من التراث الوطني ، حيث خلعت عنصر الحداثة والمعاصرة على وسائل الاتصال التقليدية التي كانت مهددة حينذاك بالاختفاء والإنقراض ، تحت وطأة عملية تحديث

المجتمع الجزائرى . وكانت اللغة التى يؤثر هذا الفنان المبدع استخدامها وتوظيفها فنيا هى لغة الشـــعر الملحون (الشعبى) وقصائد المديح .

تلك نظرة بانورامية على خريطة المسرح العربى فى الجزائر خلال الفترة الممتدة من ١٩٢٢ حتى ١٩٦١ ، قصدنا منها ان نزيح الغبار عن صفحات لامعة من تاريخ هذا المسرح لا يعرفها كثير من أبناء مشرقنا العربى الذى وفدت منه أول فرقة مسرحية الى بلد الأوراس بسبب الظروف الاستعمارية والفرقة السياسية التى آن لنا أن نعمل جاهدين فى سبيل اسدال الستار عليها ، وأن نتخذ من المسرح وغيره من الفنون سلاحا لقهر التخلف والتمزق ، وفاتحة لغد أكثر أمنا وحرية وعدلا وجمالا .

من دمشق الى وهران ٠٠ عود على بدء

أعود اليـك يا وهران من الغياب والحضـور ٠٠ غيابى عن مجاليك المونقة المطلولة بالندى ، وأهليك الذين يكافحون لاحياء لغة محمد وأبى در وعلى فى معركة الشـعريب ، رافعين شعار الجهاد الأكبر بعد أن قدم الشعب فى الجهاد الأصغر مليونا ونصفا من الشهداء فدية للحرية ، مستخلصا لنا وطنا عربيا اسلاميا من براثن أبشع صنوف الاستعمار : استعمار استيطانى شرس استمر مائة وثلاثين عاما ٠

عائدا اليك يا مدينتى الظل من الحضور فى دمشق ٠٠ من مؤتمر الكتاب والأدباء العرب الثانى عشر ومهرجان الشعر الرابع عشر فى المدينة القديمة الفيحاء ٠٠ قلعتنا العربية الصامدة على خط المواجهة الأول مع العدو ٠ عائدا الى حيث استقرت بى النوى ٠٠ الى منفاى ٠٠ مهجرى ٠٠ بل وطنى الثانى – وكل بلاد العروبة موطنى – حتى أعود الى بـلدى ويعود بـلدى الحبيب الى ٠ وآه يا مصرنا العربية ٠٠ يا مهد العراقة والابداع ٠٠ يا وطن النجوم ٠

أقول للصديق الأديب عضو الوفد الكويتى الذى ألتقى به أول مرة فى مؤتمرنا نحن الكتاب العرب وقد تداعت التأملات :

ـ يطول اشتياقى الى وجه مصر ٠٠٠ ويعذبنى الحنين ٠

ـ لست وحدك يا أخى ٠٠ فكلنا عشاق ، نحن الى أمنا الحانية العظيمة ٠ بهية وشامخة انت يا مصر رغم الجرح والحزن المطل من وراء العيون ٠٠ ورائعة أنت يا دمشق تحت المطر ٠٠ غدا ـ ولا بد أن يأتى الغد ـ تعودين يا عاصمة العروبة وتنتصرين يا دمشق ٠

لكم هى غزيرة كالأمطار الدمشقية تلك الذكريات التى احتقبتها معى من تلك الأيام والليالى أثناء انعقاد المؤتمر ٠٠ الوجوه القديمة السمحة بعد فراق الأعوام الطوال ٠٠ والوجوه التى نصافحها أول مرة وان لم تغب عن أسماعنا ووجداننا نبضات قلوبها عبر روائعهم فى الشعر والرواية والقصة والمسرحية منذ الخمسينات حتى السبعينات لم ينقطعوا أبدا عن الانتاج بعضهم احتفظ بنغمته الأليفة المعروفة ، وكثير منهم تطور وقدم الجديد ٠ فالعمر الأدبى لا يقاس بالزمان التقويمى أو البيولوجى ٠ ولكن القديم والجديد يلتقيان جميعا فى الجاحظ حينما سئل ماذا تتمنى ، فقال : أن أموت وعلى صدرى كتاب ٠

هيه يا فرسان الكلمة القوية المناضلة ٠٠ تهن الأعضاء ولا يهرم القلب ويظل القلم يخفق حتى آخر نفس ٠٠٠ قديما غنيتكم فى صباى :

مرحى يا أحباب

يا عشاق الانسان

الرحلة كانت قبل الفجر
والقمر الساري لم يسفر
عن وجـه صـديق
وحملتم مأســـاة الليـل
انى أعـلم
ألمح فى الوجه نثـار غبـار
وعلى المنكب من أطبـــاق الغيم
بعض رمـــاد
دميت أقدام تصعد فوق السفح
والسفح تجللـــه الأشــــواك
وبلوتم ما صنع الويل
انى أعرفها
أشباحا خائنة الأعين
كم غرست شوك الحقد الأسود
فى القاع ٠٠ على درج السفح ٠٠
حتى القمـــة

كنا نواكب انتصارات الشعوب فى الخمسينات ٠٠٠ نذكى نيران التحرير بأناشيدنا وقصائدنا ٠٠ نستلهم كفاح أمتنا أروع كتاباتنا ٠٠٠ نسمع ـ كأنما تملأ الآفاق سيمفونية انتصار ـ فرقعة سقف الاستعمار وهو يتهاوى فتسقط بعده الأمطار لتنبت الخضرة

بين الأطلال وتدور السواقى · كان النصر يعمد بالدم الزكى ·· حتى الأطفــال والبنات والصبايا دافعوا عن حقهم فى الحياة ·· وافتدت مدينة بلادا وشعوبا ·· كانت بورسعيد فى أيامها العشرة المجيدة ·· وتساقطت قلاع العدوان ·· كان صوتكم واحدا أيها الشعراء والكتاب العرب لأن أمتكم واحدة وعدوكم واحد · ولأن عالمنا واحد فقد وقف أصحاب الكلمة الشرفاء فى مختلف الأوطان معنا · ما كان أروع تلاحم الثوار وأجمل أيام النصر ·

فلماذا تختنق الأصوات اليوم ؟ أهى ردة بعض ضعاف النفوس أم هو الملال من طول السرى فى ظلمات الستينات الأخيرة والسبعنات؟ جولات خاسرة ولكن الصراع لم يحسم بعد ، والنصر معقود لمن يملك الارادة الأقوى · فلم الكآبة ؟ : شدوا أيديكم ·· ها قد اجتمع الشمل تحت عقود دمشق ·· وقريبا تشرق الشمس :

العود حميد يا عشاق الانسان

يا صناع الكلمة

غنوا الشمس على أبيات الأحرار

غنوها فى عين مدينتنا

وعيون الأحباب الشرفاء

فى عالمنا الآتى الأكبر

غنوا ·· لن يغنى سحر الكلمة

غنوا ·· فالليلة موعد أحبابى

ذكريات عميقة وشاجية كأطلال القنيطرة مدينتنا الســورية الجميلة التى نفذ فيها الصــهيونيون العنصريون حكم الاعدام بعد

وقف الحرب· ضحية بريئة فى الصراع المصيرى الرهيب·· ها هو طيف وجهها النبيل الحزين ·· جسدها الذى كان ·· يتحديانكم حتى تعود الجولان ·· وتعود فلسطين ·· وطريق العودة ــ تعلمون أيها الأصدقاء المناضلون ــ يمر بمصر العربية ·· وها هى ذى تنظر اليكم فاصمدوا وناصروا شعبها حتى يعتدل الميزان ·

فى الطريق الى المدينة الشهيرة على مسيرة ٦٥ كيلو مترا من دمشق ران علينا الصمت لم يقطعه بين آن وآخر الا صوت مرافقنا يرسم لنا بكل ذرة فى دمه مسار المعركة وتطورها ·· بطولة الطيارين العرب السوريين ·· كيف كانت القنيطرة عاصمة الجولان وكيف أصبحت !! وكأن أصابعها تشير الينا من تحت الرماد والشرفات التى تهاوت فى عز الظهيرة · كتـــاب مغلق أيها الأدباء فمتى ينفتح ؟ والفارس المصلوب ·· أما ان للراكب أن يترجل ؟ ··· لم تكن غير خمسة كيلو مترات فقط تفصلنا عن الجولان ·· نراها ويحرم علينا لمسها ويسكنها الأعداء !! خنجر بين الضلوع نتبادل ــ من خلف المنظار المكبر ــ النظر الى الجندى الاسرائيلى أمام حظيرته ·· يرمقنا ·· فجأة يدير ظهره ويحتجب خلف باب حظيرته ·· تراه لا يقوى على المواجهة كدأبه فلا يحاربنا الا من وراء جدار ·· لكنا قد جئنا لا نحمل الا قلوبا وأوراقا وبعض مداد ·· فالمعركة لم تستأنف بعد ·· أم ترى أزعجه أن يرى بيننا وفودا من كتاب دول أوروبا الشرقية وشـــعرائها يعبرون لنا عن تضامنهم معنـــا فى السراء والضراء ؟؟ أعلام ثلاث تتابع وأسفى : سوريا ، الأمم المتحدة ، اسرائيل ·· تخترق العيون ·

ولم تكن تفصلنا عن فلسطين ــ أرضنا المحتلة ــ غير عشرين كيلو مترا ·· لم تزد المسافة عن عشرين كيلو مترا ·· ومازالت الأرض عطشى رغم مرور القوافل المتتابعة من الشهداء ·· وغدا تنطوى المسافات ، ولابد من صنعا وان طال السفر ·

لكن القلم يتوقف ·· فأفزع ·· أحاوره فينتابنى هاجس المرض اللعين ·· ليست تهويمات شاعر ، فالذى غاص فى احشاء تاريخ الصراع يعلم ان فلسطين ضاعت يوم قبلنا الهدنة وتوقفت الحرب ·· والذى اكتوى بالنفى مثلى وكل الذين استيقظوا يعلمون أن بداية السقوط كانت محاورة ثنائية · فاجمعوا شملكم بعد فرز مرير · ذلك منطق العصر فاذا شـــئتم التراث فان محمدا النبى والقائد الأعظم كان يأمر صحابته بالقيام لمتابعة الغزو كلما عادوا من غزوة فاستراحوا واستمرأ بعضهم الراحة وغفل عن عدوه الكامن خلف الأبواب · ويا ويل من يكثرون عند المغنم ويقـــلون عند المغـــرم ·

حين التقينا أيها الأحباء أخذت بهذا الفيض الشعورى النبيل ·· كان اللقاء قصيرا وعابرا كالحلم ، ولكنه كان عميقا وراسخا فى قلبى ·· لم يكن ترحيبكم بى وانما بمصر العربية ·· ما هذا الحب الكبير ـ الذى تطويه حناياكم ولا تقدرون على كتمانه ـ لأمنا جميعا ؟ تستعذبون اسمها فتهتفون به مرددين ، لأنكم تعلمون أنها تصغى اليكم ·· تختبر ودكم فى زمن المحنة أيها الرفقاء العرب الأصفياء · أمتنا أذن بخير ·· لم أسمع تصفيقا حينما انشدت شعرى بينكم وانما سمعت خفقة قلب واحد يدق فى آلاف الصدور كما قلت لكم · مصرنا هى الشعر ··

قلب دمشق العربى الخفاق تتبلور قطرات المطر معلنة عن سماحته وأصالته فى أيام المجد وليلات القهر ·· تغتسل مدينتنا كأنما لتتطهر قبل صـــلاة الثأر · وتتلامح شعاعات الشمس من بعيـــد ···

يشجينى الصوت الجماعى لمؤذنى الجامع الكبير ·· مسجد بنى أمية ·· لا نأمة فردية ·· فالصـــلاة جماعة ·· يبدأون معا

ويسترسلون وكذلك يختتمون ٠٠ انهم يرسمون للقادة ـ هؤلاء الحفاظ البسطاء أبناء السلف الصالح ٠٠ الطريق الوحيد للنصر ٠ وكذلك يفعل منا ـ نحن الكتاب العرب ـ الصادقون فيهتفون معا : لن تتحول كلمتنا الى فعل ٠٠ لن يتحول الفكر الى بندقية ٠٠ طالما تولت الأمر فينا بعض الدول التى لا تحترم الفكر والأدب الا بالقدر الذى يخدم السلطة ٠٠ ان مؤتمراتنا تعبىء المثقفين ولكن مقرراتها وتوصياتها تظل رشح مداد ما لم تعدل تلك الدول عن خطتها ٠ فلتكن الكلمة الأخيرة لاجماع الرأى العام المتمثل فى المفكرين والأدباء لا للسلطة ٠

وجوه وأشياء عزيزة لن أنساها أبدا ٠٠ طفلة وزهرتان من القرنفل ٠٠ كل شاعر استقبلته أجمل مشاعر الانسان وهدايا الكون : البراءة والنضارة وأجمل الزهور لكن وأسفاه حملت فى حضنى القرنفلتين ٠٠ كنت أود أن أحملهما فى عودتى لتراهما ابنتى الصغرى فى وهران ، ولأحتفظ بهما كالعاشقين الصغار ٠ بحثت عنهما عند الرحيل دون جدوى ٠٠ لا بد أن عاملة الفندق قد ألقت بهما فى سلة المهملات ٠٠ ترى لأنها كانت غارقة فى بحر الهموم بعد أن حرمت رؤية طفلتيها كما حدثتنى وسألتنى مشورة رجل القانون ؟ أم لكثرة ما تعودت ذلك ؟ فماذا أصنع ـ هكذا ظنت السيدة الحزينة ـ بقرنفلتين ذابلتين ؟

قال لى صديق التقيت به بعد عودتى من دمشق كأنما أراد أن ينكأ الجرح أو يعبر عن مواساته : « كنت قريبا من القاهرة ٠٠ تحوم حول الحمى وتوشك أن تقع فيه » قلت : « ليتنى استطعت أن اقــع ٠٠ وآه يا بلدى ٠٠ أكاد أشرق بالدمع ولكنى أتجلد وأجالد ، والنصر لنا ٠

وحين كنت عائـدا أقرأنى واسينى الأعرج كاتب القصـة الجزائرى الموفد الى جامعة دمشق لتقديم أطروحة يحصل بها على

شهادة الماجستير في الأدب العربي ، أقرأني ورقة دمشقية :

« كانوا أربعـة

أربعة من الكتاب المصريين التقوا على طاولة واحدة ، تجمعهم صداقة قديمة ، وعذابات في سجون القاهرة وغيرها • وكنت أنا وصديقتي نشرب قهوة معهم ، وندردش قليلا • أربعة كانوا ليس الا ، نفاهم وطنهم الذى أنجبهم : الدكتور حسن فتح الباب ، الشاعر عبد الرحمن الخميسي ، واثنين آخرين ضيعت اسميهما • كانوا مطاردين حتى لحظة شرب القهوة • بعد الانتهاء من الرشف والدردشة نهضوا جميعا فجأة وقالوا ، بل وعدونا شرفا أن اللقاء سيكون في مصر • رأيت بعض الحزن يعلو وجوههم • حاولوا أن يتواعدوا لكن الوقت كان قصيرا ، فتوجه الأول الى وهران ، والثاني الى موسكو، والثالث الى بيروت ، والرابع الى طرابلس ••

كانوا أبناء وطن واحد ، كالقطة حين تحزن تأكل صغارها »•

لا تأس أيها الصديق•• انه النظام المرتد يريد أن « يصفينا نفسيا » بعد أن عجز عن تصفيتنا جسديا •• وكلما اشتد عليه الحصار أدركه السعار المجنون لأنه أجوف من الداخل ، وهو يدرك كم نحن أقوياء بحقنا وشرفنا وصمودنا • لأننا أبناء شـعبا •• وأبناء أمتنـا العربيـة التى لن تقهر •• وسوف نعود الى مصر وتعود الينا •• غير بعيد :

ولى وطن آليت الا ابيعه   والا ارى غيرى له الدهر مالكا

وفى البدء كانت الكلمة •

***

عائد الى المحروسة من الامارات

مشدود بين الغدو والرواح ‥ صوت الخليج على الشارقة ودبى يردد هتاف (ابن ماجد) حاديا ركب البحارة المغامرين فى آفاق المجهول ، وأصداء (المتوسط) من (الاسكندرية) تغمر سمعى ووجدانى ‥ يتناءى الزمان وتخصب الذاكرة جماليات المكان والانسان ·

مشدود بين النقائض والتوائم ‥ بين الثنائيات والمنمنمات العربية والمشربيات : أعود الى الوطن الأم ‥ الوطن الحلم ‥ أرض « المحروسة » مصر كما كان يسميها مؤرخها الفذ الجبرتى ‥ محروسة ببركة أهل البيت والأولياء الصالحين ‥ رهبان الليل وفرسان النهار ، وترانيم أرواح الشهداء عبر العصور ‥ يبلى رفاتهم ولكن عبيرهم يبقى متناثرا بين أبواب (النصر) و (الفتوح) و (المتولى) وبين (السيدة زينب أم هاشم) صاحبة القنديل الذى أوحى الى شيخنا العظيم يحيى حقى باحدى روائعه الخالدة · ويفوح من الاسكندرية وبور سعيد ودمياط على طول مواقع المقاومة ‥ العبير الذى يضوع ولا يضيع ·

فى الأفق الأعلى يتآخى ويتوحد المنــاضلون والمتصوفون ٠ ولكنهم مسكونون بطلب الموت حتى توهب لأحبــابهم وحفدتهم الحياة ولا تسقط راية البطولات ٠٠ ويظل النيل يجرى وان ظمأ أهله الى حين ٠٠ (السيد البدوى) ولى (طنطا) وامام المتصوفة يمتشق حسامه ، وينخرط فى كتيبة المحاربين بالحق فى مواجهة افك اصليبيين ، فتقطــع ذراعه لترتفع هامته نبراســا للأجيال الصاعدة ، وتصبح الصومعة قلعة للنضــال ٠

حرافيش القاهرة المعزيــة يخرجون من كهوفهم كالطوفــان الهادر صوب الأزهر يردون جحافل الفرنسيس ـ المغيرة كالجراد بقيادة ابن كورسيكا الطاغية ـ عن مدينتهم ٠٠ عن جميلتهم ٠٠ عن تراب المحروسة الطيبة ٠٠ يصدون أعتى المدافع بصدورهم العارية ، مستصرخين الأحياء والأموات بالنــداء الخالد (الله أكبر) ٠ ولا تمضى ثلاث سنين على ثورتى القاهرة الأولى والثانية حتى تنحــدر فلول الغزاة تجر ذيول خيبــاتها موليــة الى بحر الظلمات ٠٠ بحر الروم ، وتبقى أرض الحضارات مشعة على العالم أضواء خضراء ٠

تتفجر فى أعماقى جدليــة الحيــاة والموت ٠٠ الواقــع والأســطورة ٠٠ تواريــخ الانتصــارات والانكسارات ٠٠ لهب المنشدين وأناشيد اللهب ٠٠ النار والزيتون وأطفال الحجارة ٠٠ ثم أرتد الى الأيام والليلات على الخليج لأحيى بالذاكرة أوقاتا مثل استراحة المحارب التقطت فيها بعض أنفاسى ، واستردت مساحة صغيرة ، ولكنها مضيئة متوشحة برداء من التفاؤل فى الزمان المقيت والتوقيت العصيب القاتل وكوابيس مصير الهنود الحمر !! كوة ضئيلة برقت لى ـ حين جئت الامارات فى شتاء عام ١٩٩٢ زائرا عابرا ثم طالت الاقامة على عكس ما كنتأخطط ـ كوة فى نهاية النفق الغارق فى دوامة الظلمة ٠

ألتقى ويا للمفاجأة بالفتى للشاعر الناحل الذى كان يدمن صحبتى حين وفدت على الشـارقة أول مرة سنة ١٩٨١ ، وكان عاشقا للشعر والشعراء شاديا فى البدايات أراه الآن مثيرا للجدال حول محاولاته الابداعية ومسئولا عن مجلة شـعر ٠٠ التنميـة العمرانية والسكانية على قدم وساق ٠٠ وللثقافة نصيب موفور من الثروات كى يصبح النفط نعمة لا نقمة ٠ فليس هنالك سبيل آخر ــ بعد الايمان بالتضامن العربى ــ غير الثقافة لجمع الشمل المفتت ولم شتات الاخوة الأعداء بعد أن زادت من فرقتهم حرب الخليج ٠

كلما حملتنى خطاى هنا وهناك بين أبى ظبى والفجيرة رددت : هنا فى هذه الجزيرة العربيـة كانت لنا حضـارة وكان انسـان مبدع ٠٠٠ يستخرج اللؤلؤ من المحار ليزين به الجيد العربى ٠٠ ويصـحح مسيرة البشرية كلما اعوجت ٠٠٠ وهذا التمرد الذى يبرق فى عيون الشباب اليوم ، ارهاصة باستعادة الحرية والعدل والكرامة ٠ وتلك المطبوعات الثقافية والأدبية التى يتوالى زخمها برهـان سـاطع على ارادة التغيير والاصرار على هزيمة اليـأس والاحباط ، وكأن المبدعين ــ شبابا وكهولا ــ فى الامارات العربية المتحدة ــ اذ تنثال أعمالهم الفنية والنقدية ــ يريدون أن يعوضوا فى أسرع وقت كل ما فاتهم ، ويسهموا فى اثراء الثقافة العربية الجديدة التى تولد فى الآونة الحاضرة ــ رغم كل المعوقات ــ من رحم الايمان بحتمية انتصار الحياة والتقدم للانسان الصاعد على جناحى الأمل والعلم والتوق للخلود ٠

يطفو على خاطرى الآن بيت شاعرنا القديم :

الشوق ولما يمض بى غير ساعة
فكيف اذا خب المطى بنا شهرا ؟

فلقد اشتقت الى الساعة الموعودة التى كنت أرقبها صباحا لأطالع صحف الامارات الثلاث : البيان فى (الملف السياسى الأسبوعى) بحكم حرفة القانون الدولى التى أدركتنى، والدراسات المنشورة على صفحات صحيفتى الأثيرة (البيان) فى اشراقة صفحتها الأدبية التى تمزج بين التراث والحداثة ، ومتعة الصبوح اليومى ذى النغمة الوامضة الآسرة الساخرة فى المقال اليومى (مع الناس) للأديب عبد الحميد أحمد ٠٠ والمأثورات الحية لصحيفتى الاتحاد والخليج وشهرية (المنتدى) و (أوراق) و (شروق) ٠ لا أفرق بين أحد منها طالما شعرت بصدق الكاتب وجديته بل فدائية عدد غير قليل من الأدباء حين يصدعون بكلمة الحق والجسارة ملتزمين بالدفاع عن مصالح الناس ، والتعبير الحر عن هموم الأمة وآمال الناشئة فى مولد عالم لا يستغل فيه الانسان ولا يستعبد عالم أوحد ٠

عود على بدء :

ها أنذا أعود من الامارات الى قاهرتى التى عذبتنا وعذبناها بالحب ، وهى تدعونا الى الصبر والمقاومة حتى تشرق الشمس ثانية كما يقول همنجواى ٠ وها أنا أتطلع الى نجومها منشدا والدموع تترقرق فى عينى أبياتا من قصيدة لى :

يا نجوم القاهرة
لا تنامى

لا تكوني ومضات من دموع

في عيون القادمين

لا ولا ذوب شموع

في ضمير الراحلين

لا تغيبي

نحن مازلنا نعاني ونغني

ندفن الموتى ونشدو للحياة

لك ٠٠ للوردة والنهر القديم

لا تنامي ٠٠ لا تغيبي ٠٠ يا نجومي

الحقيقة ـ بعد العودة من أرض ابن ماجد الخالد ـ تتحول الى حلم ، والحلم يصبح رؤيا ورمزا ٠ وتتناءى المجالى عن ناظرى وان بقيت فى خاطرى :

وكنت اذا أرسلت طرفك رائـدا
لقلبـك يوما أتعبتـك المنـاظر

رأيت الـذى لا كله أنت قـادر
عليه ولا عن بعضه أنت صـابر

ترى أتكون لنا عودة الى الشارقة مرة أخرى فيعود الحلم حقيقة ، والرمز وجوها حبيبة وخليجا ساطعا وابن ماجد سيدا من جديد على البحار يغالب مصارع العسم ويمحق أسطورة التتار ، متوحدا بشمس الجزيرة ، مغنيا لنجوم القاهرة ، مستعيدا للحرم المقدس فى الأقصى ٠٠ مادا ذراعى النسر العربى المحلق ليحتضن

سماء المشرق والمغرب ·· ترى هل يعود ؟ وهل يأذن لنا أن نعود لنحتفل معا بأعياد النصر وذكرى الشهداء وتجليات الغد الموعود ، يهتف بنا مع ناظم حكمت : (اذا لم تحترق أنت ، اذا لم أحترق أنـا ، اذا لم نحـترق نحن ·· فمن ذا الذى يضىء شـمعة فى الظـلام ؟) ·

الحقيقة تتحول الآن الى حلم ، والحلم يغدو رمزا مضيئا ، وتبقى امارات ابن ماجد القديم منارا ثقافيا فى الأفق ، ويحيى الشـعب العربى فى كل بقعـة من أرض الحضـارات التى لن تموت ·· لن تموت ولو كره أعداء الحرية والعدل ·

لافتة على الطريق فى أرض اخناتون

على الشاطىء الغربى لترعة الابراهيمية التى تقسم مدينة أبو قرقاص احدى أهم مدن محافظة المنيا قسمين ، كانت السيارة تنطلق بنا متجاوزة قرية أبى وأنا ذاهل عما حولى ·· فرت دمعة من عينى خلسة ، لمحها صديقى « نبيل » الذى كان يجلس الى جانبى ·· أدركته الحيرة والشفقة سألنى : ماذا بك ؟ قلت : هذه « منسافيس » التى طالما حننت اليها على مرمى بصرى ولكنى لا أستطيع اليها سبيلا · قال : لنوقف السيارة وتهبط أنت منها كما فعلت أنا وترى من تحب ، وسوف ننتظرك · لذت بالصمت · فقد كان حالى مثل حال الشريف الرضى فى أبياته المأثورة :

قال لى صاحبى غداة التقينا
نتشاكى حر القلوب الظماء :

كنت حدثتنى بأنك فى الوجد عقيدى
وأن داءك دائى

ما تــرى النفــر والتحمــل للبين
فمـــاذا انتظارنـــا بالبـــكاء ؟!
لم يقلهـــا حتى انثنيت لمـــا بى
أتلقى دمعــى بفضــــل ردائى ..

حثنى على البوح وأن أفضى بين يديه بهمومى ، فكشفت له سرى وأجبت عن تساؤله : كيف لى بزيارة القرية التى تنتمى اليها كل جارحة من جوارحى وكل قطرة دم فى شراييني ، ولست أعرف أهلا لى بها حتى يدلنى أحدهم على دروبها ، وقد رحل أبى منذ ستين عاما الى دار البقاء ؟ فهل بقى من أقربائه فى القرية من لا يزال حيا بعد كل هذه السنين ؟

فى قطار العودة من المنيا الى القاهرة ، وعلى صوت العجلات سمعت صوت روحى وأصداء أخرى بعيدة تنتظم شعرا من ذوب أحشائى فى مناجاة ذاتية وحوار مع البلدة القريبة البعيدة ، وترابها العنبرى الذى لم يقدر لى بعد أن أمشى عليه أو أتنسمه . ها هى ذى (حزمة من الجذور) فى يدى ، قصيدة القطار الشجية . ما بين الوفاء والعقوق تدفق النغم .. أترى رحلة المعاناة الطويلة مكبلة بالزى العسكرى هى التى جرفتنى وأعجزتنى عن البحث عن الجذور ؟ أم هو التنــكر للفقراء من عائلة أبى أعمى بصرى فضــاع من قدمى الطريق كما يقول كامل الشناوى ؟ لماذا لم أتشبث بتراب الآباء مثلما تشبث بطل رواية (الجذور) باسمه الافريقى ، وظل يصرخ به برغم السياط التى تجلده كى يتخلى عن جلده ، ولا ينطق الا بالاسم الأجنبى الذى سموه به ؟ لماذا لم أكن شجاعا مثله أنا العربى الافريقى ؟ لماذا خنت عهد الجذور ؟ وتفجر القصيدة :

(نذرت ما أوفيت/ ان الوفاء شيمة الموتى/ تميمة الأحياء / حى أنا أم ميت ؟ الحارس السجين صاح بى فما استجبت / والشاعر الضليل علنى ارتويت / وملنى هزارى الحزين فاحترقت) ٠

وتراءى لى النخيل من سماء قريتى التى تجنبتها منذ الطفولة حتى الكهولة ، يغبطنى لأننى طليق الجناحين أسافر حيثما شئت فى المكان والزمان ، أما هو فاسير التراب :

(حدثنى النخيل عن وقفته / مرنقا بين الرياح الأربعة / مطوقا تحت التراب لا مدى ولا فلك / يرانى الملك / مطوفا على مرافىء الرحيل / حرا بلا ضفاف / ولا تراب لا جذور) ٠

حرية الأسير :

هكذا شكا الى النخيل محنة جذوره التى تضرب فى أعماق التراب وتقيده فلا يستطيع أن يطير مثلى من بلد الى بلد حرا طليقا كالعصفور ٠ فشكوت اليه حريتى وأمنيتى أن يكون لى مثله جذور بعد أن عدمت موطنى القديم ، ورجعت من طوافى بالآفاق حائرامحروما ، ضائعا مهزوما كأننى الملك الضليل ، امرؤ القيس لم يجن من رحلته غير الاياب :

وقد طوفت فى الآفاق حتى   رضيت من الغنيمة بالاياب !!

(حدثته عن قيده الرحيم / وعن جناحى العقيم / فمن ترى يبدلنا / ضل طريقى للتراب / أضنتنى القباب / الا غيابات الغيوم / ترمقنى بجفنها العليل / مجرة النجوم / يقتات بى البريق والعباب / على مرافىء الرحيل / مجاهل النسيان والهوان / يأسى منى حلمى أهلة انطفاء / حلم اشتهاء / لابرء لا داء ولا عليل / الا صدى الغليل / واثوى وجدا بالنخيل) ٠

أيتها الحرية لست غير وهم ضيعني اذ حرمتني من نعمة الانتماء الى الجذور ، وغدوت أسيرك ، أسير خوفي من ارتداء ثياب جدودي ، أسير مطامحي التي عزلتني ومزقت نسيجي ٠٠ غنيت للمطلق رغم احتوائي أحزان الفقراء والمقهورين في وطني وفي العالم ، لكني لم أرتض العيش على تراب قريتي القريبة البعيدة ، حتى زيارتها ضننت بها · هكذا كان خطابي اليها :

عيونك السود سماء الأقحوان / بللها الليل رذاذا من حنان / يا ابنة عشقي للثرى وللندى / يانشوة الميلاد خيفة الردى / ورجمة الصدى / يا جنة حرمها على أفعوان / جوب البحار لا زمان / يحنو ولا مكان / يحمي اذا ما حوصر البستان / وراود الأحبة الشيطان / فاستدفأوا بسلة البذور / يا من يبيعيني / بالموج والفضاء والسفين / حرية الأسير / محارة من الحجار قبضة من طين / وحزمة من البذور) ·

عود على بدء :

أصداء من جذوري في الصعيد وأطياف من النخيل عادت معي الى النخيل ٠٠٠ لا جذور تحنو ولا نخيل يشكو في مدينة الملايين يسبحون ويتلاطمون في زحامها غرقى لا يعرف بعضهم بعضا لأنهم بلا جذور ٠٠ أراني طافيا على صفحة النيل الجنوبي ٠٠ لا نيل في القاهرة بعد أن حجبته عن العيون القطط السمان في عصر الانفتاح ٠٠٠ النيل « حابي » هناك حيث تركته خلفي في « المنيا » يهمس بتراتيل اخناتون مسبحا للاله الواحد آتون :

ملك الجنوب والشمال

الحي سيد القطرين

الحى اله الشرق

يا خالق الاجنة فى النسـاء

وصانع النطفة فى اصلاب الرجال

يا من تطعم الجنين فى بطن أمه

فاذا ما خرج الى الارض

فتحت له فمه

كما تهدىء من روعه عندما يبكى

يا الهى كثيرة هى أعمالك

ولكن ما خفى عن عيون البشر

كان أعظم

أيها الاله الواحد الذى لا نظير له

فى الأرض ، خلقتها برغبتك

فجرت النيل من باطن الأرض / ليهب الحياة للمصريين / أنت سيدهم جميعا / أنت سيد المخلوقات الذى يشرق لهم / أنت آتون قرص الشمس المهيب الطلعة / أنت الذى يهب الحياة للبقاع الغريبة / وقد جعلت لهم نيلا آخر فى السماء لينزل اليهم الماء / لتحيل الجبال الى أرض زراعية : ألا ما أعظم تدبيرك / هذا المطر هبة قسمتها لهم أيها الاله الأبدى / رفعت البلاد بعيدا لتنفذ فيها نورك / أنت الاله الواحد الذى يظهر فى صور عديدة/ أيها الرائع المتلألىء / أيها البعيد القريب فى وقت واحد / خالق الملايين من المخلوقات بقوتك / مبدع المدن والحدائق والحقول

والطرق والأنهار / كل عين تراك أمامها لأنك قرص الشمس الذى يشرق على الأرض) ٠

أترانى عدت الى ميتافيزيقيتى القديمة التى كنت قد برئت منها بعد أن ارتطمت بصخرة الواقع ؟ أتراه عبثا كل ما ألهمتنيه الواقعية الجدلية ؟ فلماذا اذن أتأمل فى ثلاثيــة الحياة والموت والبعث منذ زرت صحراء الأشمونين وتونة الجبل ورأيت مومياء « ايزاد ورا » الصبية الأميرة الجميلة الشهيدة وناجيتها :

مازال الخصر نحيلا والوجه الاكليل

اتراها القمراء العذراء تفتش عنها

تحت الشعط الحجرى المنسى

كى تمنحها قبلات من شفة البردى

أو من شفتى ايزيس

تنضو عنها كفن الظل العارى ؟

أهى رؤيا ايزاد ورا أم ذكرى طه حسين تلك التى أثارت الشجون ، وانبعثت من رمادها جمرة الحنين المستبد الى (منسافيس) التى رجعت دون أن أجوس خلال ديارها ، وأزور مقابر أجدادى وبيوت من لايزال على قيد الحياة منهم ؟ هل أغنتنى عنهم أطياف أخناتون وانساب قصيد جديد فى ليلة قاهرية مسهدة العينين :

(سبعون عاما جبلا / محررا مغللا / مجللا بسحبه مكللا / فوق دمى مشتعلا / طوفت ما طوفت / عرفت ما عرفت / رايت من رأيت غير أن من / بحثت عنه لم اجده) !!

وتداخلت النخلة الفرعونية العربية فى حلم اليقظة بعد أن تبعتنى الى القاهرة أو تبعتها بخيالى الى الجنوب الذى فارقته ملوما محسورا ٠٠ تداخلت مع مآذن المساجد وقباب الكنائس ورؤوس المسلات ، الكل فى واحد ، والواحد فى الكل ، سيمفونية أعرق بلاد الدنيا ٠٠ توقيعات الأذان ودقات الأجراس وصمت المسلات الناطق بلسان أعظم الحضارات ، كلها تتعالى فى الفضاء لتصل الأرض بالسماء ٠٠ نخلة تنامت فى قلبى وحملتها على يدى كسورة من مصحف أو أيقونة من كنيسة أو حجر من معبد ٠٠ وصار قلبى مصحفا وأيقونة وزهرة لوتس وبردية مثل قلب المتصوف محيى الدين بن عربى :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... اذا لم يكن دينى الى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبـــان
وبيت لأوثان وكعبـــة طـائف ... والواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب دينى وايمـانى

كل خلية فى دمى ٠٠ كل خفقة فى فؤادى تحولت الى أبيات من الشعر ، لم أكتبها وانما كتبت نفسها كما قال يوما عن قصائدى الناقد النافذ البصيرة مصطفى عبد اللطيف السحرتى الذى لم يعد أحد يذكره فى عصر الفوضى وصراع الأهواء ، فكل قوم بما لديهم فرحون ، ومصر أحيانا كما قال شوقى بلد (كل شىء فيه ينسى بعد حين) ٠٠ عادت بى نخلة الصعيد الى القاهرة أو عدت بها ، صرنا اثنين فى واحد ، نتبادل مواقعنا : هى الروح وأنا الجسد أو أنا الجسد وهى الروح ٠٠ جاذبتنى ردائى وعادت بى الى أرض أخناتون ٠٠ الى حيث كان ينبغى أن أكون حينا من الزمن ، أتزود فيه من نفحاته ورحيق مدينته (أخيتاتون) قبل أن تلقفنى دوامة القـــاهرة ٠

علمتنى النخلة معنى الوفاء ، فهى متشــبثة بجذورها تأبى الا أن أعود مثلها الى جذورى ٠٠ شرايينى ، وأنفض عنى الزيف لأكتسى بثوب الخلود : (نمت بقلبى نخلة : تبعتها الى الجنوب / أحملها على يدى / مسلة مسنونة فرعاء / مئذنة شجراء / كنيسة عذراء / منارة زيتونة خضراء / وزيتها من كبدى / خرجت من شرنقتى / أحبو الى محارتى / دفينة فى قريتى التى / ما عرفت شطا على بحار / وما عرفتها / الا صوى تذكار / اسم روته الدوحة الشماء / عن طائر كان أبى / « أبى الذى مضى / ولم تشيع نعشه حشود » ٠

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما

حملتنى نخلة الجنوب مرة أخرى الى « الفكرية » حيث زار رفيق الرحلة بعض أهله ، ليروى شيئا من غلته يستعين به على مواصلة الحياة فى العاصمة ذات الألف وجه ٠٠ هناك احتضن تراب قريته ٠ أما أنا فكنت على قاب قوسين أو أدنى من قريتى وحيل بينى وبينها :

كالعيس فى البيداء يقتلها الظمــا
والماء فوق ظهــورها محمـــول

قدر فرعونى بل اغريقى كأننى « سيزيف » كلما صعد حاملا صخرته ٠٠ صلبيه ٠٠ الى قمة الجبل هوى الى القاع ، ثم أمرته الأقدار أن يستأنف الصعود ثم الهبوط ٠٠ لعنة أبدية كتبت على الأشقياء من دون العباد ٠ فأين أين المصير !! وظلت اللافتة المغبرة التى تحمل اسم قريتى على شاطىء الابراهيمية قريبا من أرض أخناتون تطفو على سطح مخيلتى ثم تغيب كأنها مثلى سيزيف :

(أوما « نبيل » أن نفيق / مال بنـــا عن الطريق / فهذه قريته / وقع خطاها لم يزل فى مســـمعه / عبيرها فى أضلعه / شادوفها والساقية / مسرى رؤاه ٠٠ أدمعه / أفضى الى صحابه بوجده : / أعرف هذا الوجه من قديم / وذلـــك الجدار حضن القلب : و (التوتة) التى علت / كانت رحيق من أحب : وغاب كى يعود حانى اليدين باســـم العينين / فقد روى الضـــلوع والخدين / بضمة الرفاق والأحباب / نادى الهوى أجاب : وصافح الجميز واللبلاب والنخيل والأعناب / أما أنا فقد وجدت قريتى على الطريق / لافتة مصـــلوبة ســـوداء / بلا أب ولا أخ ٠٠ معين !!) ٠

وادى الأشمونين ٠٠ ورحلة العودة الى الجــذور
(للميلاد الثانى انبثقت شــمعة ٠٠ للحب الأول)

جرت مياه كثيرة تحت الجسور منذ ذلك اليوم البعيد الذى زرت فيه مدينة المنيا أول مرة اذ مضت عليه بضع سنين ، والغريب انه كأنما لم يمض عليه الا يوم أو بعض يوم اذا حسبنا الزمن بمقياس عاطفة الحب وذكريات البحث عن الجذور ٠٠ كم تطلعت الى أن تشرق على شمس نهار أجدنى فيه أزور القرية التى ولد بها أبى وأمضى فيها شطرا من شبابه ، ثم غادرها الى القاهرة حيث التحق بالجامع الأزهر مجاورا به وبحثا عن فرصة عمل أفضل ، ولم يقدر له أن يعود الى قريته « منسافيس » بمحافظة المنيا مرة أخرى ٠ كما لم يقدر لى أنا أيضا أن أراها رغم رحلتى الطويلة فى الحيـــاة ٠

طوفت فى الآفاق ما طوفت وعدت من الغنيمة بالاياب كما قال جدنا امرؤ القيس ٠٠ قطع الفيافى على ناقته أو حصانه حتى بلغ أبواب بيزنطة وطرق باب قيصر ، لاجنا اليه طالبا عونه على القبائل

التى قتلت أباه الملك حجر ، ولكنه لم يستجب له ، بل خلع عليه حلة مسمومة كما يقول بعض الرواة انتقاما منه بعد أن بلغه أن ابنته وقعت فى غرامه · لقد بدأ الشاعر الضليل رحلته المأساوية مفعما بالأمل ، فقال مخاطبا صاحبه الحقيقى أو المتخيل حين أشرفا على بلاد الروم ، وكان قد كتم عنه غايته :

بكى صـاحبى لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنـــا لاحقـــان بقيصرا

فقلت له : لا تبك عينـــاك انمـــا
نطـــالب مجـــدا أو نموت فنعذرا

ولكنه انتهى من مغامرته وهو يجر أذيال الخيبة ، ولما أدركته المنية فى طريق عودته ــ كما قال رواة آخرون ــ حفر له صاحبه أو نفر ممن عثروا عليه وهو يحتضر قبرا على جانب الطريق · وكانت المفاجأة أنه كان يجاور قبرا لاحدى الأميرات ، فأنشد هذا الأمير الشاعر العربى قبل أن يلفظ آخر أنفاسه :

أجارتنا انا غريبان ها هنـــا
وكل غريب للغريب نســـيب

تداعت هذه الخواطر في وجداني لحرماني تحقيق أمنية طالما راودتني وهي رؤية موطن الأجداد · وطالما حلمت أنني أسير فيه على الدرب الذى قطعه أبى فى خروجه من قريته · ولكن الرياح جرت بما لم تشته السفن وصحت مقولة الشاعر القديم : (وتقدرون وتضحك الأقدار !!) · فقد مضى قطار العمر وهو يقف عند المحطات المرســـومة واحدة بعد أخرى دون أن يقف مرة واحدة بالمحطة المشتهاة · وكم انكسر القلب وأنا أجدنى غير بعيد منها ولكننى لا أنزل بها ، وكأنها السراب أو العنقاء المستحيلة :

انـي رأيته المبيـــتحيل ثـــلاثة :
الغول والعنقيـــاء والخل الوفى

حتى طائر الفينيق المحترق ينبعث من رمــباده حيا ويطلق جناحيه فى الفضاء صادحا مغردا : ها هى ذي قرية الأجداد تقع فى قلب وطنك ، ولكنك لا تملك فسحة من الوقت لارتيادها لأنك تمضى حياتك عدوا لا تكاد تلتقط أنفاسك ، لا بحثا عن مجهول وانما لتجد موضعا لقدمك بين طوفان الأقدار اللاهثة :

ضل بك السفين فى فضائك الغريق

وكان ملاحوه يصرخون : لا انتظار

يموت من يقف

فى وادى الأشمونين

تتعاقب الأيام والأعوام ، شمس تطلع من بعد شمس ، وقمر يغرب من بعد قمر ، وتتباعد القرية مهوي الفؤاد ، وتبدأ برودة الشيخوخة تنخر في العظم · وفجأة أراني في (المنيا) مع الصديقين الكاتب الصحفى المفكر الوطنى الأستاذ نبيل زكي والأستاذ الشاعر الشعبي سمير عبد الباقي ، في طريقنا الى المحافظة للاشتراك معا في ندوة ثقافية نظمتها مع جامعة المنيــا · تأهبنا للعودة الى القاهرة فى اليوم التالى بعد أن نكون قد زرنا منطقة الأشمونين الأثرية ·

فى الأشمونين شعرت مع رفيقى الرحلة أننا نولد من جديد فى عالم ساحر عجيب ·· عالم الروح والابداع الانسانى ·· صحراء ليست ككل الصحراوات فى هذا العالم ·· كون غامض ·· كل حجر من تمثال أو حائط مقبرة فرعونية ينطق لغة لا نعرفها ··

تيجان زهر (اللوتس) على الأعمدة ·· هنا كانت أعظم حضارة فى تاريخ البشرية · هنا حقيقة وان كانت تتجلى كأسطورة خيالية : غصن من (لوتس) ممشوق القد / وهج بلورى لا نارا لا برق / جسهد يوءد / تاج حجرى يولد / طلل يتمرد / نغم يسرى ·· بوح يرتد /مومياوات لطيور (أبى منجل) / تتناجى أو تتوحد / حفت أبصار ·· أسماع / أرواح رفت أشباحا حولى / من يرقبنى فى قدس الأقداس / ويعد على الانفاس ؟ / ·

غيم يتورد أو يتبدد / شجر وهمى يولد أو يوقد أو يخضل / لا ضوء ولا ظل / لا حلم ولا صحو / لا رنة عيدان لا نفح بخور / لا أزمانا لا أوطانا لا غربة / فالكون صلاه / فى وادى الأشمونين / الا نأمه / من أين أتت ؟ / بزغت نجمه / امتدت ثم ارتدت ؟ / عصفور الجنة ؟ / أم مهجة (ايزيس) انفطرت دمعـة / للميلاد الثانى انبثقت شمعة / للحب الأول ؟

لم أسمع فى حياتى مثل هذا الصمت الذى يشـبه صمت البحر ، أمواج وأصداء خفية تحيط بى من كل ناحية بل تغمر روحى ، ليس ثمة مكان فى عالمنا الأرضى يرتل مثل هذا النغم ، وكأن العالم يولد هنا أول مرة أو كأن المكان معبر الى العالم الآخر ·· أسمع أصداء ناى سحرى من بعيد كأنه موسيقى بتهوفن فرعونى ·· تراتيل اخناتون وصلواته مازالت ترن فى الآفاق ··

لم يدر بخلدى قط ما جاء فى نشيد الانشاد لسليمان الحكيم : الكل باطل ، باطل الأباطيل ، قبض الريح وحصاد العنكبوت !؟ ولعل تلوت الآية القرآنية : (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) · واسترسل القصيد : (واد قدسى / لا زرع ولا ماء جارى / لا أرغول يحدو لا لحن معاد / ودهور تمحى فى لمحة / لم يبق سواها أغنية

كانت / وبقايا قافلة مرت / الكون صدى أصداء / أموات أحياء ضدان ويستويان / كل الأنهــار ولكن البحر الطامى لا يروى / والســاقية الظمأى تبقى من بئر وسنان / طلل الدنيا أم حلم الرجعى ؟ / عذراء الوادى تحتضن الأفق القمرى / لكن الشمس على وجنات (الأشــمنين / وشم ينداح بحارا / يجرى بين يديه أنهارا ٠٠٠ خضراء / يجلو أطيافا ٠٠٠ أسرارا / أزهارا صفراء / ويدق نواقيس الصمت الأبدى) ٠

ايزادورا وطيف طه حسين

فى وادى الأشمونين و (تونة الجبل) حججنا الى الغرفة التى ترقد بهــا مومياء (ايزادورا) شهيدة الحب وعناد الأب القاسى القلب ملفوفة فى كفنها الأبيض ٠٠ يحكى التاريخ ــ والكلمات التى مازالت بقاياها محفورة على الجدران شاهدة على صدقه ــ أنها فتاة من بنات حاكم المنطقة أحبت فتى من أبناء الشعب وكان الشط الشرقى للنيل مسرحا للقاء ، ولما علم أبوها بالأمر حرم عليها مغادرة القصر ٠ ولكنها تسللت ذات مساء لتلقى حبيبها بعد أن رتبت لها مربيتها العجوز هذا الموعد ٠ وتم اللقاء بين العاشقين الشابين ، وفى أثناء عودتها لمحت الحراس الذين أرسلهم والدها لمراقبتها ينتظرون على الشاطىء ، ففزعت وألقت بنفسها فى النيل ، فكانت أول ضحية فى التاريخ ٠

لم يندم أب على قسوته مثل أبيها ، وقد ذاب قلبه فى قصيدة رثاء مازالت بعض سطورها محفورة فوق المقبرة التى بناها لهــا وكأنها دموع نازفة ٠٠ وقد ضمنت الأستاذة سلوى العنانى معانى هذه المرثية مقالا لها بعنوان (ايزاد ورا شهيدة العشق) :

(ايزادورا ٠٠ لن أقدم يا ابنتى من الآن فصاعدا شيئا من القرابين ٠٠ فقد أصبحت فى عداد الآلهة ٠٠ وداعا يا صغيرتى ٠٠

فأنت الآن حورية من حوريات العالم الآخر ·· ها هى فصول العام تهديك الماء الطهور الخاص بشعائرك ·· فالشتاء يقدم لك اللبن وزيت الزيتون ·· ويزين جبينك بزهور النرجس ·· ويبعث الربيع لك بشهد النحل والورد المتفتحة ·· ويضع على صدرك زهرتك المفضلة ويهديك الصيف الشراب البارد من عصير الفاكهة الشهية·· وينثر عند قدميك الأزهار البيضاء العطرية) ·

ودعنا « ايزادورا » ، وفى القلب ما فيه من الحسرات ، لنلتقى بطيف طه حسين مرفرفا على استراحته التى يفوح فيها عطره ·· فى هذه الشرفة كان يطل بعينى « سوزان » رفيقة حياته فى السراء والضراء على الصحراء المترامية التى تكتنز فى جوفها آثار أعظم حضارة فى التاريخ ، فالذى اكتشف منها وأودع المتاحف أو ترك فى مواضعه لا يعدو أن يكون قطرات من بحر وغيضا من فيض ، هكذا سرنا على رفات أجدادنا فى هذه المنطقة السحرية ، ونحن نردد قول أبى العلاء المعرى :

خفف الوطأ ما اظن أديم الأرض الا من هذه الأجساد

وقبيح بنـــا وان قـدم العهـد هوان الآباء والأجداد

وقول الشاعر الخالد عمر الخيام فى رباعياته ، ولعله كان متأثرا بفيلسوف المعرة :

فامش الهوينى ان هذا الثرى

من أعين ساحرة الاحورار

همسيا كنت أتحدث مع الصديق نبيل زكى ـ ونحن نستند على ســـور الشرفة ـ عن العميد ·· نستبطن ذكرياته عن قريته « عزبة الكيلو » التى لا تبعد عن استراحته الا بمسيرة ساعة أو بعض ساعة ·· ترى ما الذى كان يدور بخلده فى اطلالته على الوادى

الممتد ؟ تراه كان يناجي اخناتون أقدم الفلاسفة الموحدين ويردد بعض تراتيـله ؟ ففي هذا الوادى غير بعيد من منطقة الأشمونين أطلال مدينته « اخيتاتون » التى ضاق وقتنا عن زيارتها فأرجأناها الى حين ٠

في منديل الذكرى

غادرنا « تونة الجبل » والطيوف تتداعى : (رؤيا « ايزادورا » أم ذكرى طه حسين / همس ســار فى مرقبه العـالى / يتعبد أصباحا ٠٠ أســحارا / يتلو أوراق « الأيام » / أوراد « دعاء الكروان » / ناى ناء سحرى يفترش الرحب / كثبان رمال ٠٠ موجا أسطوريا / وفضاء يطوى فى منديل الذكرى / جسد حانوط فى الأكفان ومرثية / تبكى فى الجدران / تنعى « ايزادورا » / طيف الأجسام النورانية ظل الموت) ٠

لا ٠٠ ليست هذه أشباح الموت ، بل هى أطياف الخلود ، وتلك ترانيمها وتراتيلها تغمر الآفاق حولنا ٠٠ وهأنذا أصحو على حلمى القديم برؤية بلد أبى وأجدادى حين أقلتنا السيارة على طريق العودة الى المنيا وبعدها الى القاهرة ٠٠ يستأذننا « نبيل » أن نتوقف قليلا ليزور شقيقته المقيمة فى « الفكرية » ـ أبو قرقاص ـ يعود بعد قليل ٠٠ ونستأنف مسيرتنا ٠٠ ألمح على جانب الطريق ـ وعلى يميننا ترعة الابراهيمية ـ لافتـة زرقاء مكتـوبا عليهـا « منسافيس » آه ٠٠ هذه هى قريتى التى لم أرها من قبل وعشت ما عشت مسكونا بالحنين اليها مفعما براحة اليأس أو عذابه ٠ ما سلوت لحظة هذا النداء الخفى ، وكأنى « عزة » صاحبة الشاعر « كثير » اذ يقول على لسانها :

وان ســلوى عن جميل لســاعة
من الدهر لا حانت ولا حان حينهـا

يوم زرت ضريح جدى الأعلى فى الصعيد

قالت رفيقة العمر : لابد مما ليس منه بد ، تعنى أننى ملتزم بالبحث عن الجذور مهما شقت الطريق ۰ ايمانها راسخ بأننى من سلالة الحسين سيد الشهداء كما حدثتها مرارا أمى رحمها الله ، وأننى حفيد لعارف بالله اسـمه الشيخ على الحافى يؤم الناس ضريحه فى « منسافيس » ، ويقيمون له احتفالا دينيا كل عام يأتى اليه المريدون من كل حدب وصوب ۰ وقد أطلق عليه « الحافى » لأنه ــ فيما يقال ــ سافر من مقامه بالمغرب الأقصى الى المشرق قاصدا أداء فريضة الحج فى الحجاز ، وليزيد ثوابه عند الله سار حافى القدمين ، حتى اذا بلغ قرية « منسافيس » فى المنيا كان قد بلغ به التعب مبلغه ، فالقى رحاله فيها ووافته منيته بعد حين ۰ وهنالك رواية أخرى فى تفسير هذه التسمية ، وهى أن سيدى على الحافى كان غياثا لكل من يقصده داشدا مساعدته وانقاذه من الكربة التى ألمت به ، وقد بلغت مروءته أنه كان يهرع الى نجدة كل من يعلم أنه يعانى محنة دون أن يجد وقتا للبس نعليه ، مخافة أن يتأخر عن اسعاف المكروب ، ومن ثم أطلق عليه (الحافى) ۰

ساورتني الريوب فحاورت شريكة الحياة : ما الذي يثبت الحقيقة ويميز بينها وبين الأسطورة ؟ ما أكثر من ينسبون أنفسهم الى الحسين تباهيا وربما تعاليا أو تمويها كما فعل ملك في المشرق وآخر في المغرب !! قالت : هنالك شجرة عائلتك الموثقة من الأزهر ما زالت في حوزة بعض أقاربك وهي تؤكد هذا الانتماء ٠ قلت : ما أسهل الحصول على مثل هذه الوثيقة ٠ ان هي الا رغبة روحية منك تتعلقين بحلم تحقيقها ٠ قالت : اسمك آخر الأسماء المدرجة بالشجرة ٠٠ وأمنيتي أن تدرج اسم ابننا هشام ٠

عز على أن أخيب أملها فقلت : لابد من صنعا وان طال السفر ٠ وشددنا الرحال الى المنيا في صباح مشرق كشمس اخناتون ٠ وهناك في الفندق الذى يحمل اسم أول الموحدين الفرعون الحالم عرفت مفتش آثار من عشاق الشعر وعرفني ، وأبدى استعداده لمرافقتنا الى منسافيس ٠ قلت : ليس قبل أن تتحرى عما اذا كان بعض أهلي على قيد الحياة ، فقد مرت عقود من السنين منذ هاجر أبي من البلدة ٠ هاتفني ليلا : وجدتهم ٠٠ شيوخ من أقربائك لكنهم صباحا في الحقول وفي المساء يعودون الى منازلهم ٠

في درب ترابي طويل ملتو بدأنا مسيرتنا في قرية آبائي ٠٠ كانت حافية القدمين مثل وليها الصالح ٠٠ وخيل لى أن القرية الفرعونية التي كانت في موضعها منذ آلاف السنين كانت أحسن حالا ٠٠ البيوت الطينية متلاصقة كان بعضها يحتمي ببعض مثل أطفال القرى وقاع المدينة الكبيرة ، وهم متراصون في أكوام على الأرصفة في الشتاء التماسا لدفء الأجسام الهزيلة حين تتلاحم ٠ كان الاستثناء من القاعدة عدة منازل بناها أصحابها بالطوب الأحمر بعد أن عادوا من الخليج حيث باعوا قوتهم العضلية أو ما حصلوه من علم لقاء دراهم معدودة أبت الا أن تتحول الى أحجار ٠٠٠

بدأت ابنتى تلتقط صورا تذكارية فى هذه المناسبة التى لم تخطر قط على البال ، وتحلق حولها بعض الصبية ظنا منهم أننا سائحون . وبين الوجوم حينا والاحساس بفرحة تحقيق الحلم القديم حينا آخر تداعت خواطرى مثل شاعر عربى قديم على أطلال الأحبة الغائبين . بلغنا ضريح الشيخ ونودى على حارسه . وكانت المفاجأة أننى وجدت محفورا على الحائط أعلى الواجهة تاريخ وفاة الولى الصالح ، فاذا هو يرجع الى نحو ألف عام . راجعت شريكة الحياة فى حقيقة نسبى . تشبثت بحلمها .. قالت ان أجدادك فيما علمت من والدتك معمرون ، لم يمت مبكرا الا والدك ، ومن ثم فان الشيخ هو جدك العاشر .

جاء الحارس ولم يكن لديه علم بسيرة حياة الولى وموته . وبين ظنى ويقينى دخلنا الضريح ، خلعنا نعالنا .. وضعنا فى صندووق النذور ما شاء الله أن نزكى به وقرأنا الفاتحة، وتلبستنى حالة من الخشوع ما عرفتها من قبل . الحياة الموت ..البعث ، ثلاثية اللغز الأبدى.. وحين عدنا الى القاهرة لم أبت ليلتها وليلات بعدها الا بعد أن فرغت من كتابة قصيدة ملحمية عنوانها (الضريح) . لم تكن على نسق ما كتبت من قبل لأننى لم أمر بمثل هذه التجربة الروحية طوال حياتى ، لا أستثنى غير مرة واحدة سمعت فيها شقيقتى تنادى جدنا وجدتنا فى أثناء نومها وكانت مريضة طريحة الفراش ، ويدور حوار بينها وبينهما فى حضورى، وتتحدث فيه عن وقائع حدثت قبل مولدها أو حينما كانت وليدة . ولكن هذه القصة العابرة لم يكن لها أثر فى شعرى .

بعد أن صحوت ووجدت بين يدى قصيدة (الضريح) قرأتها بعينى قارىء ناقد ، فاذا بملمح صوفى يتغشاها لم يكن لى به عهد

من قبل . فعلى كثرة ما قرأت واستوعبت من شعر ابن الفارض في تائيته الكبرى وشعر محيي الدين بن عربي وغيرهما من الشعراء المتصوفين لم تنعكس على قصائدي رؤيتهم ولا أسلوبهم ، فقد كنت ومازلت أومن أن الشاعر ابن الحياة الموارة بالصراع والمصور وقعها في نفسه ونفوس الآخرين ، ومن العبث وانعدام الجدوى أن يتعلق بأستار الأوهام الميتافيزيقية . لقد خلقت الحياة على الأرض لنحياها ولا نهرب منها الى الغيبيات والى الأبراج والصوامع العلوية العاجية .

الدماء تغطى الشوارع

ان الأدب عامة والشعر خاصة لا ينبغي أن يكون مداده من زيت المصابيح ، ولكن من أشعة الشمس وفي وضح النهار ، من عرق الكادحين ومن وحي دماء المستشهدين دفاعا عن حقوق الانسان . في مرحلتي الرومانسية كنت أغنى لخد الحبيبة وأشبهه بالورد ، ثم ارتطمت بأرض الواقع ، ورأيت الدم يخضب وجوه الفدائيين والفدائيات مثل دلال المغربي الفلسطينية وسناء محيدلى شهيدة الجنوب اللبناني ، فأفقت من غيبوبتي ، وغنيت للأبطال الذين ضحوا بدمائهم في سبيل تحرير الملايين من ضحايا الاستعمار والاستغلال والطغيان . ورددت بيت محمود حسن اسماعيل :

يقولـــون عن الشـــعر ابيض هادئـا
وكيـف تغني في الهجـير البـلابل ؟

وقول بابلو نيرودا شاعر شيلي : كيف تدعونني الى الغنـــاء والدماء تغطى الشوارع ؟ . وفي رأيي أن فننا بلا قضية هو في حقيقته مهرج كما قال برنارد شو . ولكنني آمنت في الوقت نفسه أن سمو المضمون لا يكفي وحده لخلق شـاعر كبير بل لابد من توافر شروط الابداع الفني .

لذلك امتزج الملمح الصوفى فى قصيدة (الضريح) بقضايا الواقع اتساقا مع طبيعتى الحياتية والشعرية ، فكان الطائر المحلق فى الفضاء سرعان ما يهبط الى الأغصان حيث بنى عشه ، بل الى الأرض يتزود ويرتوى منها ولا يطيق فراقهـا ٠ وتناصت هـذه القصيدة مع النغمة الأساسية فى قصيدتي « حزمة من الجذور » و « الخروج الى الجنوب » وهى الحنين الى الجذور والشعور بالغربة بعيدا عنها ، وعادت النخلة التى حملتها من الصعيد الى القاهرة تملى على قصيدها :

تقاذفتنى فى الغداة الريح والدروب والغروب

تلك الذؤابة التى حملتها من نخلتى

حين خرجت للجنوب

قد حملتنى ، أصبحت ظلى الذى يحرسنى

وسادة فى الريح أو غمامة

بيضاء تحتوى اغترابى

عصفورة يأسى جناحها لما بى

فيستطيل ثم يستدير نائيا

عنى الى

كأننى قرين نخلتى الخفى

هذا الأديم العنبرى

كحل العيون المسدله

فوق العيون الثمله

لنفحة الريحان والليمون واللبلاب

لم أخص قرية مصرية بعينها بخطابى أو حوارى من قبل على كثرة ما استلهمت الريف وعشت فى بعض قراه بمحافظة المنوفية ، اذ كان همى دائما تصوير الانسان ... تصوير معاناة الفلاحين الفقراء الأجراء وصغار الصيادين المقهورين من الأغنياء الذين احتكروا الصيد بقوة نفوذهم لدى الحاكمين وما يقدمون من رشاوى ، وبقوة أسلحتهم النارية وجرائمهم التى تقيد ضد مجهول ، كما صورت عمال التراحيل البؤساء . أما فى قصيدة (الضريح) فقد استقطبت « منسافيس » أبياتى ، لأنها قرية أبى وأجدادى فلى بها علاقة خاصة ، كما أنها مدفن جدى الأعلى ولى الله ان كان حقا من جدودى وكنت من شجرة عائلته .

وحين وصفتها بدت فى قصيدتى موشحة بسحر جمال الطبيعة الريفية الذى وشيت به أشعارى الرومانسية قديما : الماء الجارى والخضرة والنسيم العليل ، وعبير الزهور والرياحين الفاغم ، وقدود الصفصاف المياسة اتى تستحم ذوائبها فى الترعة وعرائس النخيل :

من ذا اجتبى هذا التراب

من بين آلاف النجوع والقرى ؟

شف حنانا مثل أحداق النجوم

رف حنينا مثل سعفات النخيل

وأغصن الصفصاف فوق مائه المعين

ورق حتى صار عشبا وندى

لم تعكس هذه الصورة الواقع ، ولكنها عكست رؤية العاشق لمن يحب ، وحسن فى كل عين من تود كما يقول عمر بن أبى ربيعة .

ولكن هذه الرؤية سرعان ما تبدلت حين ذكرت أبى وهو يغادر القرية وأحبابه فيها سعيا الى المجهول ، وكيف سرت على التراب الذى حمل خطواته ثم ودعه ، ثم تذكرت زيارتى لضريح الشيخ وانتابنى احساس بالانتماء اليه . واختلطت رؤاى التى انبثقت من الموروثات المستكنة فى تكوينى ، والحضارات التى تعاقبت على وطنى وأشربتها منذ العهد الفرعونى حتى اليوم ، فاســتطردت متحدثا عن شجر الصفصاف :

يحنو على خطوى الوئيد .. هل رأى
خطو أبى فسار بى الى الضريح ؟
لا .. لم يكن مثواه .. كان الضيف جده
وكنت ـ يا للشبح الشاجى ـ حفيده
وبيننا آلف من السنين .. بيننا
ألف شكاة زلزلت
أصداؤها الوادى لفلاح فصيح
كانما عاد المسيح
يصبغ وجه الأفق والصحراء والنجوم
بريشة من دمه المسفوح
ومريم البتول
تسقى الوهاد والسفوح
من دمعها الخضيل
ليولد الزيتون والكروم والنخيل
فى الطلل العقيم

هكذا كان طبيعيا أن أعود بفكرى الى حقب التاريخ المختلفة ، وأن يتعانق بل يشتبك الفكر بالروح التى اشتعلت بعد همود وإغفاء حين جلست في الضريح .. حقائق وأوهام ، وعى ولا وعى .. مشاهداتى وتأملاتى وقراءاتى كلهـــا صهرت فى بوتقة واحدة ، وتجمعت فى كيانى الفرد كل النقائض : الجسد والروح ، الحياة والموت ، الحكمة والجنون ، الحقيقة والأسطورة ، اليقين والوهم ، الأنبياء والشـــعراء الباحثون عن معنى الوجود وغايته ، الدنيـــا والآخرة ، الصراع والمصير .

هل تقمصتنى روح أبى العلاء المعرى أم روح الخيام ، عالم ابن عبد الجبار النفرى أم الحلاج ؟ ولعلى رددت حينئذ قول ايليا أبى ماضى :

خلت أنى أصبحت فى القفر وحــدى

فاذا الناس كلهم فى اهابى !!

صارت نفسى طبقات بعضها فوق بعض ، لم يقرب احداها أعداء البشرية ، وانما سكنها وأطل على من شرفاتها جموع الذين يعطون ولا يأخذون من الفلاســـفة النورانيين والشعراء الحالمين بانتصار الحرية والعدل الاجتماعى . وقد التف حول هؤلاء أبناء الســـبيل يهيمون على وجوههم بحثا عن كسرة خبز نظيفة وكأس حليب لطفل يتيم . وكان الشهداء فوق الطبقات جميعا من الفدائيين الذين ضرجت الأرض دماؤهم ، فى سبيل تحرير وطن وانقاذ أسرى من براثن الطغاة ، وليذهب الزبد جفاء ويبقى ما ينفع الناس فى الأرض ، احتشدوا كلهم فى حضرة الشيخ دفين « منسافيس » وقد تحولت دماؤهم الى أنوار لا مثل أشعة الشمس الملتهبة ، بل مثل الليالى المقمرة وطلعة الربيع من جوف الشتاء :

رؤاى حامت حول دارة القمر

وطاف بى ومض من الجنون

سلة ازهار ‥ وعاء جمر

مسرى دموع ‥ زق خمر

ذكرى فدائى ‥ نداء ثأر

جرح نبى يغتفر

وهمى يخالط اليقين

حقيقتى أسطورة الوجود

أيدى العناه

ترانيم وتراتيل تملأ أفق الضريح ، يعانق طيف أبى روح جده الولى ، وعليهما يرفرف جناحا أوزيريس ، الكل فى واحد والواحد فى الكل · الحدائق والجبال تردد الأصداء ، وعلى فمى ينســاب النشيد :

حديقتى مدينة معلقه

فوق جبال الملح والرصاص

والأغنيات الشبقه

الى شواطىء الرحيل

تعلتى معزوفة الخلاص

للطائر المهاجر الطريد

فجأة تتعالى مناحة من ايزيس وأرانى بعض أشلاء أوزيريس الحسين ، ويهدهدنى طيف أمى وأنا أنحدر الى قبر الشيخ وقد علت صرخاتى على رؤية السماء ٠ فى احدى يديها اكليل من زهر اللوتس وفى الأخـــرى ورقة من البردى استخرجتها من وعـــاء نحـــاسى :

أشهد « أوزير » على الغرب

يوارينى ضريح الشيخ

« ايزيس » تؤم النائحات

يجمع أشلائى الحسين

أمى قديما عللتنى كى أقاوم الشتات

بلوحة من ورق البردى أودعت

كأنها تميمة قارورة من النحاس

مختومة بحفنة محروقة من طين

شـــاهدة بأننى

ذؤابة من غصن « زين العابدين »

الشـــــجرة :

أسلمنى الضريح الى ذكر شجرة العائلة التى رأيتها فى صباى لدى قريب لنا من أسرة أبى كان يعمل فى القاهرة ثم رحل عن دنيـــانا ، واحتفظ بعض الأهل المقيمين بالقرية بها ، وأبوا أن يســــلموها الى أمى تذكارا من أبى رحمه الله ودليلا لى ـ كما قالت لى ـ على انتمائى الى عترة رسول الله ، فاسمى واسم أخى

الأوحد مدرجان بالشجرة فى ذيل القائمة التى يبلغ طولها عديدا من الأمتــار ٠

كانت رؤيتى لهذه الشجرة حدثا صغيرا عارضا فى حياتى ، وحين بلغت مرحلة الشباب ظل كامنا فى بؤرة اللاشعور دون أن يطفو على السطح بفعل مثير خارجى ، ولم ألق بالا لالحاح زوجتى فى مطالبتى بالحصول على الشجرة ٠ ويرجع ذلك الا الى متغيرات الحياة فقط ، ولا الى عدم ايمانى بصحة هذه الشجرة وغيرهـا مما يحوزه بعض الناس ، وانما الى واقعة قديمة تحولت الى عقدة نفسية ، وهى استيلاء أهل أبى — كما حدثتنى أمى رحمها الله — على ما تركه أبى فى قريتــه من أرض ونخيل ، واصرارهــم على موقفهم من أكل مال اليتيم حين سافرت الى « منسافيس » للمطالبة بحقوقنا ، فاشترطوا أن تتزوج رجلا منهم حتى لا يستولى غريب على ذلك المال ، وذلك تقليد ريفى صارم جائر مازال ساريا حتى اليوم فى كثير من البلدان الريفية فى الصعيد والدلتـا ٠ وقد رفضت ذلك الوضع وعادت الى القاهرة حزينة مقهورة ، وعاشت فى كنف أبيهــا الذى كفلنا ٠ وحين قرأت معلقة طرفة بن العبد استوقفنى بيته المأثور :

وظلم ذوى القربى أشـد مضاضـة
على المرء من وقـع الحسام المهند

ولكن زيارتى لضريح جدى الأعلى حسبما جاء فى الشجرة وقعودى مع أسرتى بين يديه أيقظنا ما كان غافيا ، وسارتا بى فى مسرى آخر يختلط فيه الواقــع بالخيال ، وتشف الروح حتى تعانق طيف الشيخ ٠ وتسمق الشجرة كأنها نخلة الصعيد التى حاورتها وحاورتنى من قبل لتصبح « الثيمة » الأســاسية فى الجزء الثانى من قصيدة (الضريح):

وتمتمت : اليك هذى (الشجرة)
كنزا خبيئا من قرون
ذخر اليتيـم
هدية من جدك الولى
وقال صاحبى :
رأيت جذوة من نارها
طالعة من قلبك الطعين
كأنها شقائق النعمان
جادلته فمد لى زهره
مخضوبة الحروف من ديوان شعر
عليه خط اسمى وقال لى :
اقرأ كتابك المبين
كالبيرق المنشور
هذا الشذى الفواح فى السطور
مثل عبير النـد والبخور
بعض دم الحسين
فانظر تر الميلاد والنشور
فى لوحك المسطور

ومثل أهل التصوف شعرت أننى على قاب قوس أو أدنى من مرتبـة الحلول ، لا حلول الحلاج الذى عبر عنـه بقوله :

(ما فى الجبة غير الله) ، وانما حلول الشيخ الحافى فى بدنى ، أو صعود روحى لتتوحد بروحه · وأحسست كأن طاقة من النور فى الضريح قد انفتحت أمامى وحولى ، لأرى ما لا يرى الا فى أحوال الكشف والتجلى ·· استغفرت لذنبى حين لم أبر بأهل أبى على الرغم مما فعلوا ، وكان أحرى بى حين بعثوا بواحد منهم الى فى القاهرة وكنت ذا منصب ليصلوا ما انقطع بينى وبينهم ، ولا نأسى على ما فات ، كان أحرى بى أن أنسى أو أتناسى الماضى ، وأفتح صفحة جديدة من الود وصلة الرحم ، ولكننى لم أفعل ·

خاطبت روح الشيخ التى تصورتها ماثلة تحف بنا أو تطل علينا ، معتذرا عن جحودى ومفضيا اليه بشجونى وهموم رحلتى التى ما عرفت خلالها الا المعاناة والتناقض بين هويتى كشاعر ومهنتى التى استغرقت شبابى وكهولتى :

بالله يا شيخى المسجى فى لفائف الضياء والظلال
يا أيها الطيف البعيد يا مزاره القريب ها أنا
أجثو لديك
كأننى شهدت يوم (كربلاء)
احمل صلبانى وأكفانى أرجو المغفرة
لأننى جحدت من قبلك فيض (الشجرة)

الرايــة :

وتفجرت جراحات الواقــع والماضى القريب فاذا بى أضمن قصيدتى (الضريح) قصيدة من ديوانى (فارس الأمل) بعنوان (الراية) بعد أن انبعثت من قرارة نفسى ترجنى كالزلزال :

قتلت مرتين :

فمرة نفسى

لأننى رفعت راية القناعة

وكان لى غلام

رأيت فيه وطنى المجرح الشهيد

يعود أخضر الاهاب ضاحك العينين

وكان لى وتر

اطفأت فيه شجنى المخاتل العنيد

لأننى استبدلت بالذين آمنوا

بائنى النبى فى ثياب مارد

أما وطفلتين

وبعتهم

لقد استدعى اعتذارى عن عدم البر بفقراء أهل أبى الريفيين، وتحميلهم جريرة القادرين منهم على عون الأطفال اليتامى ، اعتذارا آخر عن قبولى مهنة رجل السلطة المسلط على الفلاحين البؤساء مهما حاول أن يدافع عنهم · لم أغفر لنفسى فى الحالين ، فقد آثرت نفسى وأبنائى بمحبتى وتضحيتى · وقد تمثل لى جمع هؤلاء الفلاحين العناة فى أبى ، وكأننى شعرت بالندم لتنكرى لهم أو انفصالى عنهم وعدم أخذ الثأر من ظالميهم :

ومرة أبى قتلت

قتلته لأننى مشيت مختالا على قبره

ونمت عن ثاره

وكانت الأفعى التى التفت على صدره

ترمقنى بنظرة جوفاء

وضحكة جامدة صفراء

رجعت خالى الوفاض

تفاحتى مره

أنا رقيق الأرض شاعر الأمير

وجاءت لحظة التطهير والغفران حين جثوت فى مدفن الشيخ، فاغتسلت من خطاياى كأننى أولد من جديد · تخلصت من الرداء الذى طالما وقف حائلا بينى وبينهم هؤلاء الذين باعدت أقدارى بينهم وبينى فكانت تقصينى كلما اقتربت ·· الآن فى حضرة صاحب هذه المقبرة تتزايل كل الأوهام القديمة التى تلبستها من عنفوان السلطة التى مثلتها ومن صولجانها ، ولماذا لا أقول من طغيـــانها والشرطـة كانت دائما ـ كما قال الفيروزا بـادى فى قاموسه ـ خدم السلطان مهما تزينت بالشعارات · حادث صغير قد يكون عرضيا يصنعه فرد صغير منهم كفيل باثارة كل المواجع والعذابات المترسبة فى وجدان الريفى المصرى ، استعمال القسوة فى معاملة أحدهم ولو كان مرتكبا جريمة ضد الجموع يوقظ أفعى البغض من سباتها ، ولا تغفر حسنات الدفاع عن الأنفس والأموال والأعراض السيئات ·

وهكذا سئمت الأمر كله ، وبيدى لا بيد عمرو رددت الى أهل السلطان زيهم ، وان كانوا يرون أن تنحيتى كانت بيدهم لا بيدى ، عقابا زاجرا لى ورادعا لأمثالى ممن قد تسول لهم أنفسهم

الخروج على الخط الأحمر ، وهو تثبيت هيبة السلطة بالعدل أو بالعسف ، فالضرورة تبيح المحظورات :

واليوم ها انت ترانى قد برئت
من دائى العياء ما ادخرت
من طارف أو تالد حتى آتيت
أشعل فى نيران لهفتى اليك
كل الذى ألبست من دروع زهوى
صولجانى صهوة الجواد والصهيل
قربى الذى اشتهيت من شفاعتك
لدى أبى الذى مضى
ولم تشيع نعشه حشود

رحلة الاغتراب :

لم يكد يرد ذكر أبى مرة أخرى فى القصيدة بوصفه من أحفاد الشيخ حتى تداعت ذكريات هجرته من القرية الى مصر التى تكفل العيش الكريم فيما يحسب الريفيون لكل من قصد رحابها ، أليست المدينة التى لجأ اليها ودفن فيها أحفاد الرسول ، فحرستها عناية الله بفضل مقامهم فيها فكانت المحروسة ؟ ومازال أهلها يلتمسون البركة وقضاء الحاجات من أولياء الله الصالحين المدفونين بها ، فيزورون أضرحتهم ويستشفعون بهم مقدمين ما يقدرون عليه من قروش فى صناديق نذورهم ..

ما كان أبي غير واحد من هؤلاء الملايين · ولكن رؤيتي لهجرة القرية الى المدينة قد اختلفت عن رؤيتهم ، فرأيتها على حقيقتها ، رأيتها مثل وحش طيبة الرابض على أبوابها ليلتهم كل من يجرؤ على الاقتراب من أسوارها · هكذا تحدثت مع الشيخ عن مغامرة أبي حين ارتحل من (منشافيس) الى القاهرة المحروسة مثل كثير من أبناء الريف الذين ينتزعون أنفسهم من قراهم ويقتلعونها من جذورها جرياوراء السراب :

يا شيخي الغافي في ضلوع قرية

مغلولة الاقدام حرة الغمام

يمامة في الغار أشجان نبي

هاجرها مغامرا أبي

اغرته غيلان المدينة المعلقة

فطار حتى احترقا

وغاص حتى انطفأ

من قبل أن يسلمني مفتاحها لأنه

هوى على أبوابها المائة

في فكي الوحش الذي يحرسها

مدينة الأشباح والألوان والأوثان والحمقى

ومرة أخرى تسلمني التداعيات واجترار الذكريات الى رحلة اغترابي بعيدا عن جذوري في موطن الأجداد ، كأنني سندباد ضل طريقه فترامت به الدروب والبحار والسموات ، أو ابن الرومي الطائر الغريد في غير جنسه كما وصفه العقاد ، اذ يقول مصورا قلقـــه :

ألا من يريني غايتي قبــل مذهبي
ومن أين والغــايات بعــد المذاهب ؟

لقد نذرت حيــاتي وشعري للدفــاع عن الفقراء في بلادي ومقاومة كل من يقف في طريق تحررهم من الفاقة والعوز ومذلة الاضطهاد في وطنهم، وهم ملح الأرض وأصحاب الوطن الشرعيون، ولكن خوفي على مكانتي الاجتماعية حال بيني وبين عناق بقايا أهلي الكادحين هناك في الصعيد ، مكتفيا بالحسب على أسرتي الصغيرة وذوي رحمي الأقربين • حتى أصدقائي وفيت لهم وعرفت معنى الحب والتراحم فيما أوليتهم من نفسي • فأي تناقض عشته بل أية ازدواجية ؟ عن هذه الحيرة وذلك القلق خاطبت شيخي وقد استبد بي الحنين الى الجذور :

بالله دع لي حفنة
من التراب احتمي بها
دعني اليك انتسب
فقد عرفت ما عرفت
غير اني قد مللت
قد ضللت •• قد غرقت
ضمني الى جناح قريتي الصغير

بين خطاب الغائب الحاضر والحديث عن الواقع الاجتماعي الذي كان ولا يزال تراوحت أبيات القصيدة ، ومن روح المكان وصاحبه الى جسد الشعب المتعب منــذ عرفته في الخمسينات ، انسابت سيمفونية الواحد في الكل والكل في الواحد • وشعرت

بى تحيطنى آلاف العيون ٠٠ آلاف الأقدام ٠٠ تتشبث بى وأتشبث بها كى نقاوم بعد أن سقط قناعى القديم ، وتمثل شيخى رمزا لكل الجموع :

دعنا معا نطير
نطير ٠٠ كلما رأتنا أعين الصقور
نحثو على وجوهها الكالحة الجارحة الجوفاء
ترابك المقاوم العنيد
حجارة من مارج سجيل
ليسقط القتام نستحم فى جداول السماء

ثم عادت نبرة التصوف الهادئة الصافية كانسياب جدول صغير والمضيئة كنافذة على السماء والرفافة مثل أجنحة الملائكة ٠٠ وتخيلت نافذة الضريح الصغيرة فى الجدار ليلا وقد أوقدت فيها شمعة لتدل على المقام وربما لتؤنس صاحبه ، فتذكرت يوم مررت بضريح الشيخ الخضر فى حى بولاق بالقاهرة وكان ذلك فى مطلع الشباب ، وقلت مالا يقال فى حق ولى الله ، فأصابتنى لعنته فى شكل سيل من الحجارة الدقيقة يرجمنى ، وكان فى صحبتى صديق الصبا الشاعر المحقق الأستاذ محمد محمود حمدان ٠ فى تلك الليلة التى لا تنسى فتح أمام بصيرتى أفق جديد ، وبدأت أرتاب فى أفكارى عن عالم الأرواح والغيبيات اذ كنت أحسبها خرافات وأوهاما ٠ كنت مكذبا فأصبحت غير مصدق ولكن غير مكذب فى الوقت ذاته ٠ ومازلت كذلك حتى اليوم ، وان غدا الفكر ميالا الى التصديق :

هذا الثرى المنطفىء الوهاج يزكو

فاغما بشملتك

يرنو الى من شقوق شمعتك

مزدهيـا بنضرتك

كأنه اللوتس والنسرين

مطوفـا بهالتك

تضىء مثـل اليـاسمين

تلك العيون السود حولى انتثرت

وطوقتنى وهى نور بالغيوم والوجوم

كانها تعرف سرى

ترمقنى ... تنكرنى

تسقط عن وجهى القنـاع

ووجـدتنى أهفو الى حالة تشـبه الحلول عند المتصوفـة ، فأتجرد من الجسد الطينى وأتحول الى روح نورانية ، تتحد بروح الشيخ التى أحسست بها ترف حولى . وخيـل الى أن الخلاص الذى أبحث عنه يكمن فى هذا الاتحاد :

تلك العيون السود حولى انتثرت

دعها ترائينى قليلا كى امر

من ثقب هذا الليل .. كى أفر

من سجن هذا الجسد الغرور

كانت تلك أول مرة تراودني فيها فكرة سجن الروح فى الجسد والشعور بالرغبة فى التخلص منه · ولعلى كنت متأثرا بقول أبى العلاء المعرى :

أرانى فى الثـــلاثة من ســجونى
فــلا تســأل عن الخبر النبيث

لفقـــدى ناظرى ولزوم بيـــتى
وكون النفس فى الجسم الخبيث

فى حضرة الموت :

ولاشك أنها كانت خاطرة عارضة مرهونة بالظرف المكانى الذى أنشأها وهو المثول فى حضرة الموت ، وأنها انبثقت من الوعى الباطن ، ذلك لأنها لا تتفق مع جوهر فكرى ومساره الذى لم يتغير كثيرا طوال حيـاتى ، فقد دعوت دائما للحياة واعتنقت ما قاله ناظم حكمت : (ان أجمل الأيام ما لم يأت بعد ، وأجمل الأطفال من لم يولد بعد) · وكان الفكر الاشتراكى ولا يزال مهيمنا على رؤاى واتجاهاتى · ولم أتحدث عن الموت فى فترة اكتمالى الفنى والعقلى الا فى سياق تمجيد الاستشهاد فى سبيل قضـــية عادلة ورثاء الشهداء · استثنى من ذلك رؤيتى المتشائمة فى شبابى التى كتبت من وحيها قصيدة بعنوان (حفار قبرى) ، ومن قبلها سولت لى نفسى ــ وكنت فى مرحلة الدراسة الثانوية ــ أن أنتحر ولكنى جبنت أو وعيت ·

على أن خاطرة الموت العارضة قد طالت فى القصيدة وكأننى كنت مسكونا بها فى أثناء محاورتى للشيخ صاحب الضريح الذى أنتسب اليه أو أود ذلك · ولا جدال فى أن الموروث الدينى قد نضح على هذه المحاورة :

هيىء لنا في روضيتك

ظلا يؤاخي بيننا حتى أراك

أخف محمولا على شـــذاك

قطرة ماء من لدنك

علالة أشفي بها قلبي السقيم

روحي العقيم

غير أن هذا الموروث امتزج بنزعتي الواقعية اذ لجأت اليــه من فر طسخطي على أعداء البشرية في القرن العشرين الذى عشته :

ياشيخي المستعلن الخفي

ملتني الشجون

أسرى بي المدى لعالم ضنين

الا بأشباح الجراح والسراب

والدم والمأساة والمجون عالم الجنون

وكأنني اذ ألتمس من الشيخ الاجابة على تساؤلاتي أتمثله حيا أمامي ، وأناشده أن يجيرني مما يحيط بي من عذابات الحيرة ، فهو رمز الكمال البشرى بعد أن عرج الى سماء الأبدية ، فانكشف له الغطاء ونهل من ينابيع الحكمة الصافية ، فأصبح في قدرته القول الفصل ، وفي امكانه أن يسدد خطاى بعد أن تحول التراب الذى يضمه الى تبر نوراني من جلاء البصيرة وصواب الاشارة :

يا شيخي النائي الغريب

لم لا تجيب ألست منك

كما تداولت الرواه ؟

ان البلاد تناشد الأهل البقاء

وأنت لى سكن وأهل

لم لا يصاهر ضوؤك الفينان ظل

بيدى ترابك نورك الصافى السخى فكيف لى

أن ارتقى طفلا جدائل دوحتك ؟

أتعلق الأغصان للقمر البهى

لأقول لك :

انت الفلك

وأنا التراب يدور لا يدنو

يحن فيرتمى شوقا اليك

ويجن تحنانا لهمس من لدنك

وفجأة أتحول من مخاطبة الشيخ الى مخاطبة الوطن ، بل أناجى الوطن المتمثل عندى فى الشيخ ، أليس الوطن هو أصحابه والشيخ رمزهم وخلاصتهم ، حتى أنهم يتعلقون به فى مزاره كأنه أحدهم كما كان أيام حياته . ويتحول الهمس الخفى الى نداء ثائر هو عودة الى مذهبى وعقيدتى فى الحياة ، نضال شعبى حتى الرمق الأخير والعقبى للصابرين . لهفة الى انتزاع الحق من الباطل ، والحرية من براثن الظلم والاستبداد ورغيف العيش من أيدى

مختطفيه السوداء • وينبعث أمامي كل تاريخ مصر وتاريخ الشعوب جميعا فى الصراع ، فتشتعل أبيات القصيدة تعبيرا عن المقاومة والثورة من أجل انقاذ المستضعفين فى الأرض • قطرات جديدة من بحر قديم ، وتنويعات على لحن أساسى من قصيدتى التى طالما عزفت على أوتارها • فالوطن مازال يعانى رغم كل التضحيات ، ولا حل لأزمته الا المزيد من الاصرار على الفداء :

وطنا أريدك لا يذل لغاصبيه
ارضا أريدك لا تهون
ماء تغص به حلوق مدنسيه
ويطيب وردا فى خدود بناتنـا
وردا لأبنـاء السبيل
مهدا لأطفال يتـامى
موتا جميلا فى سماوات الفدا
قطرا ••• ندى
وبساطة تدحو المدى
افقا يموت على شواطئه الردى
ويعيش (متولى) و (شعبان) الوديع
لا قهر يغتال المغنى لا دموع
ميراث ماء أرتجى لا ارث دم
نورا على نور لسمار الليال

متولى الصياد :

يبدو أن (متولى) سيعيش فى داخلى حتى نهاية المطاف هو وأبناؤه ورفقاؤه فى قرية (فيشا) ، هذا الصياد البائس الذى نقلنى من وسادة الرومانسية الناعمة الى صخرة الواقعية ، حين رأيته شبه عريان فى ليلة شتائية فى قاربه الذى يضم زوجته المصدورة وأطفاله ، ثم تبين لى أن هذا القارب هو داره ومأواه ، وأنه لا يملكه بل يستأجره وقد عجز عن سداد ايجاره المتأخر ، فهدده صاحب القارب بطرده منه ليكون العراء مأواه هو وأهله ويسدل عليهم ستار الموت جوعا أو بردا ٠

(متولى) هو رمز مصر الفقراء المساكين الكادحين ، وهو قدرى الذى لا فرار منه حتى تنقشع الظلمات ، والا فكيف دخل الى قلب القصيدة واتشح بردائها وأصبح جزءا من نسجها ؟ ان أسلوب تيار الوعى الذى قام عليه بناء هذه القصيدة هو الذى استدعى (متولى) ومأساته ، كما استدعى بعده الشيخ عازف القيثار على أبواب مقاهى القاهرة التى يرتادها المنعمون ولا يلقون اليه بالا ، واستوحيته قصيدتى (الشيخ والقيثار) وهو قرين متولى ابن القرية من حيث موقعه فى قاع السلم الاجتماعى ٠ كلاهما يبحث عن رغيف خبز غير مبلل بالدمع له ولأبنائه ، يعمل ولكن أين من يجزيه : الناس أم القدر ؟ بل هم الناس لأن البشر هم القدر ٠ هم يستفيدون من عمله ولكنهم لا يعطونه حقه ٠

ويعود النص الشعرى الى أفق شيخى مخاطبا ومسائلا ، وينبع النيل من خلال القصيدة فأراه بعين أبنائه المضيعين وبلدهم تفيض بالخيرات من زرع ونخيل وأعناب !! ولكن اللصوص والثعالب ينهبونها كما قال أبو الطيب المتنبى :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   وقد بشمن وما تفنى العناقيد ؟

تنثال موجات الغناء الشجى واحدة بعد أخرى ، تهدأ ثم تعلو ، تعلو ثم تهدأ ، وينبلج فى ظلمات اليم نور الشـيخ كأنه المنقذ من الضـلال :

لم لا ترطب جبهتى الحرى

بلثم من يديك ؟

لم لا تجيب ؟

جد لى بقطر من نداك

أسقى به صبار روحى

شوك أشواقى اليك

أنا الجديب وانت هذا النيل

يهمى من سماك

انت السـناء

النجم فى الفلك البعيد

يعانق النخل المديد

سيزيف مصرى عصرى :

ولكن الهمسات والنجاوى تتحول الى صرخات كابوسية تعبر عن العجز عن تغيير الواقع ، عن سيزيف وصخرته :

وأنا عويل الريح فى الأرض اليباب

دمعى الحبيب

جسدى النضيب انا الصليب

ودمى الخضيب

وانا بقايا من هديل

يشدو بحلم المستحيل أنا الصليل

يصدا على عتبات شيخى

ما ادخرت سوى الصدى

امحو به صدا الردى

بؤس القرون

ما بين قهر واحتماء

بين اختلاج للجنين وبين رؤيا للخلود

نم فى سـلام

انى قريب من قريب

نغمة عدمية غير مسبوقة فى شعرى الذى استغرق حياتى الا قصـيدتى (حفـار القبور) · ولعـــل الظروف السـياسية والاجتماعيـة التى تلت نصر أكتوبر العظـيم سـنة ١٩٧٣ الذى استبشرنا به خيرا ، فلم تتحقق الرؤيا ، لعل تلك الظروف هى التى أملت على هذه النغمة اليائسة والنبرة السوداوية · ونظرا الى أن القصيدة دائرية فقد عادت مرة أخرى الى النخلة وهى رمز لقرية (منسافيس) ، ومزجت بين الطبيعة الريفية وبين الواقع المعيش فى القرى وقيعان المدن ، من خلال رسم لوحات تشكيلية متتابعة تتراءى فيها النماذج البشرية التى تختلف فى مهنها وتتفق فى يومها وغدها ومصيرها ، ومنها عمال التراحيل الذين يمثلون

السخرة فى أبشع معانيها بما يصبون من قوتهم العضلية وعرقهم فى عروق أرباب الأموال والأعمال القـدامى فى عصر الطبقـات والجدد فى عصر الانفتاح والمقاولات :

خفت موازينى وادمتنى

جراحات السنين وصرخة المستضعفين

بحثا عن الوادى الأمين

يتحرر الغادى اليه من المهانة والشقاء

من الجنون

وتظل (منسافيس) من حر الهجير

غمامة خضراء غراء الجبين

تعلو بقلبى نخلة

من نبعك الرقراق يا شيخى قرى للمتعبين

ثوبا لعـار ليس تستره الغيوم

كراسة تندى بها كف اليتيم

وتقرعينا بالحروف على كتاب

وسقيفة يأوى اليها النازحون العائدون

دفئا لعمال التراحيل العناه

رجما لطاغوت الجباه

شمسا على أبواب (طيبة) حرة

ومنازل (الفسطاط) نضرها المطر

وقد أثار ذكر مدينة طيبة الفرعونية والفسطاط عاصمة مصر الاسلامية قديما ذكر بلدة ثالثة تشبه (برلين) حين كانت مقسمة، وهي مدينة (رفح) اذ يحتل الصهيونيون نصفها ويقع النصف الآخر تحت السيادة المصرية . وقد رأيت في زيارة لي بالعريش شيخا فلسطينيا في القسم المصري وهو واقف على الحدود ينادي بعض أبنائه المقيمين في القسم الآخر عبر الأسلاك الشائكة الممتدة، وكان مشهدا رهيبا لا ينسى استوطن قلبي كما استوطن القصيدة، وحلمت في اليقظة أن الشيخ قد ضم شمله واتحد النصفان :

والليل يسقط عن (رفح)

لا نجمة معقوفة تلعو روابيها

ولا يرتد فجر

لا شيخ يسألني الطريق الى (رفح)

تدنو وتناى نطفة

قد شقها نصل وصال بنصفها المغلول صل

واستوحش الشيخ البنية والولد

واستدارت القصيدة لتخاطب الوطن مجردا لا مجسدا في شيخي هذه المرة :

غيثا اريدك أيها المهد القديم

للأرض غرثى للسواقي عطلت

وطنا اريدك يا وطن

وطن الطريق الى (رفح)

وطن الفرح

ومحبة الفقراء والصفح الجميل

لا يرجمون شموعهم غيا ولا يتجبرون

للنجم آيات وللقمر استدارته

ولم يحن المحاق

فاستقبلوا الروح الأمين وآمنوا بالنازلات

وأسلمني تيار الوعي الى العزف على وتر جرح قديم ، وهو منفاى الاختيارى فى الجزائر ، وما أصابنى من أبناء بلدى هناك حين رمونى بالنكران للوطن ، أنا الذى عشت مهموما به ، وتمردت على مستغليه وخائنيه فأدرجت فى قائمة المغضـــوب عليهم ، لأن الوطن فى نظرهم هو السيد الحاكم ، من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد كفر . ولكن موقف هولاء أخف وطأة من انقلاب القيم الذى شاهدته بعد عودتى من الجزائر سـنة ١٩٨٨ ، وتوحش القطط السمان ، وصمت المطحونين على ما حاق بهم من ضيم ، رغم سقوط الأقنعة وانكشاف أسطورة نزول المن والسلوى من السماء الأمريكية :

وطن أريدك يا وطن

للعائدين من المنافى

لا يرون قلوب من تركوا هواء

وبطون من باعوك للبؤسى ملاء

من بدلوا شمس الينابيع الوضاء

صمت التوابيت الخواء

صمتا له صوت الأنين

ويتعالى النغم صاعدا بانتصار الجموع وانهيار الزيف حيث تسطع شمس الحقيقة رغم كل ما صنعه أعداء وطنهم من غسيل الأدمغة ، وينشق أديم الأرض عن فرسان من رحم مصر كانوا منذورين لاقالتها من عثرتها والنهوض بها الى مدار الشمس :

وطنا أريدك يا وطن

تتفجر الصحراء أعنابا وعشبا للرعاه

تترنم الخطوات جذلى بالنشيد

تتصاهل الخيل الفتية آخذات بالنواصى

كل خـــلاف مريـد

فرسانها الغر الميامين العراه

الا من الموت المفجر للحياة

نحتت من الصخر الصدور

ومن مياه النيل سالت رقة وتوهجا

أيدى الربابنـة الحـداه

أغنيـة النصر :

وتترقرق أغنية عذبة صافية فى عشق الوطن الذى لا يموت، وكأنه طائر الفينيق الذى يبعث من رماده ويطلق جناحيه محتضنا النيـل والأفـق ، وتصبـح مصر جنة عرضها كعرض السماوات

والأرض خالصة للمريدين ·· الصباحات ندية معطرة بعبير الورود والرياحين ، والأمسيات نجاوى العاشقين فى ضوء القمر ·· لا غيم على النيل الجارى ·· لا دموع على خدود الصبايا ·· أعواد القمح الذهبية تحت شعاعات الشمس مفعمة بالسنابل ، والأطفال يغنون وهم يتسابقون ليمسكوا خيوط أشعة القمر المتراقصة المنسكبة على مياه الترع ، وعيون الأمهات ترمقهم فى حنان ، والفيوض تعم الوادى الأمين ·· وينتصر (أوزيريس) على قاتله (ست) بقوة نفس الايزيس وبأس وليدها (حورس) المبعوث من (رع) · وتتراءى على صفحة النيل (حابى) أطياف أحمس قاهر التتار ، وصلاح الدين قائد الزحف المقدس لانقاذ أرض الكنانة وأرض الأنبياء من الصليبيين ، وشهداء أكتوبر يعودون مهللين رافعين ألوية البطولة والفداء ··· صيحات الفرح والترانيم والأهازيج تملأ الرحب وتتردد أصداؤها فى الآفاق : مصر ·· مصر ·· النصر ·· النصر :

وطنا أريدك يا وطن

لى فيك جذع ارتقيه

ولى غلالات النـدى

ولك ارتعاشات الجذور ولادة

للشمس بعد الشمس من جوف التراب

ومدى يعانقه الأبـد

مدد ·· مدد

ثم تتشكل الرؤيا عبر تيار الوعى الباطن فى مناجاة ذاتية تبدأ من جذور الحنين ، والتوحد بتراب الوطن ، فيخفت اللحن

المصور للهموم التاريخية ثم يصعد لتجاوزها .. وتتردد أصداء ناى من بعيد يترنم بموال أحمر ثم موال أخضر ، فى رحلة البحث عن الجذور ومجالدة الصخور ثم النجاة :

مالى تنادينى الجذور فاستجيب

ولطالما كنت الجموح المستريب

يعتادنى شوقى الى الأكواخ

والسيقان عارية وأخشى

أن أحن الى الجذور

حجر أنا قد فجرته رحى الليالى الدائرات

بالجمر والويلات للشعب الحزين

لكنما أبدا يسير على الجراح

على الرياح العازفات بشجوه

وبوجد موال وذكرى راحلين

موال الصبر :

تتتابع المشاهد الملحمية للشعب المصرى السمح المعطاء الذى يمشى على الجرح ، وهو يشدو على مواله على أنغام الناى والمزمار ورقص الخيـل ، يسخر من غزاته ويجعل أرضـه لهم مقبرة ، يدنسون تربته الزكية ، وما تلبث مواكبه وكتائبه أن تذروهـا ريـاح المقـاومة وتطهر التراب منهم دماء الثوار ، ولأن الأرض لا تشرب الدماء ، فان الشـهداء من هؤلاء الثوار يتحـولون الى أشجار وارفة خضراء الظـلال ، ويحيلون الصحارى المجدبة الى فراديس تجرى من تحتها الأنهار :

أبدا يسير على الليالى النازفات بنايه

يحنى الجبين

لكنه يبنى على الأطلال ما هدم الطغاه

يتقاسم العيش الضنين مع الشريد المستجير

أبدا يسير على الجراح مرنما لحن الخلاص

أبدا يسير

انها معجزة شعب يستعين بالصبر الجميل على مغالبة العواصف ، ويحول الأغصان الى رماح ، ويشق بالمحراث هامات الجبابرة الطغاة • جبل يهزأ بالزلازل والبراكين ويظل يغنى للحياة وللخلود •• جمل حمال أعباء تنوء بها الجبال ، يمتطيه المردة من الغزاة والخونة ، ويغرهم صبره عليهم ، حتى اذا فاض الكيل وبلغت الروح التراقى ألقى بهم تحت قدميه مرديا ظلمهم وظلامهم، منتقما من استخفافهم به واستغلالهم لسماحته ، ثائرا بالحقد المقدس الدفين فى ضلوعه ، مؤمنا بأن الظلم ساعة والعدل الى قيام الساعة ، وأن الزبد يذهب جفاء ويبقى ما ينفع الناس فى الأرض :

أبدا يسير

الموج يعلوه فيأوى للقرار

متشبثا بصخوره وجذوره

حتى اذا ذرت الرياح

طحالب النهر الجنوبى الاله

بيديه أوبيد القضاء

أرسى قواربه على شط النجاة
واستضحك النوار والناى الحزين
وتداعت الأعراس بين حمائم الأبراج
و (الأجران) والظل الظليل
ورجع المزمار شدو النيل والأهرام
للصبر الجميل
صبر جميل لا يمل ولا يكل
أبدا يسير فان طغى الباغى يثور
جبلا تفجره أغانى النار والحقد الدفين
جملا تحمل ألف ميل سوط جلاد
فارغى ثم أزبد جامحا
كالموج يطوى جثة السفاح
فى قاع السفين
حبلا من اللعنات مجدولا
بأعناق الولاة المترفين
والصابئين المارقين

تلك هى صورة شعبنا كما وردت فى القصيدة : جبل أو جمل أو حبل متين ، ولكن أقربها الى نفسى هى صورة الجمل القوى الصبور كصبر أيوب · ومع ذلك فان الموال العامى الآتى أشد وقعا فى نفسى لأنه يعبر أجمل تعبير عن أهم مقومات شعب مصر ورصيده النفسى التاريخى :

جمل الأحمال الصعاب
صلب لا يوم كل
صايم عن الزاد
لا حرن يوم ولا يوم كل
جابوا المحاوير صلب
على زنوده وشلوه شل
وشيلوه حمل آسى
غصب عن عينه وهو تعبان
اترجت الأرض من حمله
ولا يوم كل

هذا ختـام الأمر كله :

تميل شمس قصيدة (الضريح) الى الغروب بعد طوافها الطويل فى دروب الحياة والموت ، الحقيقة والوهـم ، ما قبل وما بعد ، وتتجمع كل الخيوط التى تنـاثرت لتغدو ضفيرة واحدة تمثل العودة الى الجـذور والفرار من قيود المدينـة الى ظـلال النخلة والمسلة والكنيسة ، ترفرف عليها روح الشيخ ولى الله الصالح .. جـدى الأعلى ، وتلتقى به فى معراجـه لتطوف معـه كأنها طائر المتصوفين الذين طالما رمزوا به الى الحقيقة الكلية المغيبة ، وكأنها تبعث من جديد ، وأرانى نطفة فى رحم الكون تطوف ما تطوف وتحن الى لثم الجذور ، وقد تحول الشيخ الى نخلة ووطن :

ريح انا ؟ مالى أرود المستحيل
لثم الجذور
شيخى نواة فى الثرى
سمقت فصارت نخلة
وانا الهشيم أنا الرفات أنا الدفين
من بعد ما هجرت رضاعى الأمهات
أنا ذا أعود
من رحلة الاسراء فى فلك الجحود
أحبو الى مهد الضريح
شلوا جريـح
طيرا يفر من القيود
كى يستظل بنخلة ومسلة وكنيسة
ومنارة خضراء فى حضن الجنوب
وتظل تتبعه المدينة : عد الى
فلا يجيب
يا شيخى الحانى الرحيم
نم فى سلام
قد جادك الغيث العميم
وجاءك الغصن اليتيم
فانثر عليه ذؤابة من نخلتك

واخفض جناح محبتك
وامدد له من راحتيك
عنقود كرم لا يضام
يسقى به نبــع الغمام
ماء الجــذور
عودا على بدء قديـم
ليكون ميلاد جديد

***

من السويس الى أرض البطولات فى سيناء

فى ضحى العمر أو زهرته ـ بتعبير العبقرى توفيق الحكيم ـ كنا نؤمن بأن التاريخ يمضى دائما الى الامام ، ولا يرتد الى الخلف مهما تفاقمت الأحداث المريرة واشتدت الصراعات بين النقائض ، وعبث بمصير البشرية الطغاة وأرباب الظلام والرجعية • فاليوم فى يقيننـــا خير من الأمس ، والغد أكثر اشراقـا من اليوم • ان (أروع الأيام ما لم يأت بعد ، وأجمل الأطفال من لم يولد بعد) كما يقول ناظم حكمت• وكنا نتغنى بمعزوفة أبى القاسم الشابى : (اذا الشعب يوما أراد الحياة ، فلابد أن يستجيب القدر ـ ولابد لليل أن ينجلى ، ولابد للقيد أن ينكسر) •

ولكننا رغـم ارادة الحياة التى امتلكناهـا بكل قطرة من دمائنا ، وأودعناهـا كل ذرة من ترابنا ، هزمنا أبشـع ما تكون الهزيمة وما يكون الموت فى حرب الأيام الستة المشئومة ، واستمر طعم الانكسار مرا فى حلوقنا • وعلى الرغم من حرب الاستنزاف المجيدة تحت قيادة البطل المأزوم جمال عبد الناصر ، فقد ظلت

الأشباح السود تطغى على شعاعات الفجر وتحجب وجه النصر ، لأن سيناء — أرض الفيروز ومعبر الأنبياء ومجلى فرسان أحمس وتحتمس ورمسيس وصلاح الدين وابراهيم بن محمد على — كانت تبيت أسيرة دامعة العينين تشكو طول الانتظار ، وبؤس الفراق ، وبأس أقدام الصهيونيين الدنسة التى لوثتها ، وملأتنا احساسا بالعار ، كلما وطئت أعناقنا وخنقت أنفاسنا ، وقتلت — كعهدها منذ القدم — أطفالنا واستباحت مقدساتنا ٠

حينئذ بدأنا نعيد النظر فى مسلماتنا ومنها مقولة ان التاريخ يسير فى حركته الدائبة الى الأمام ، لأن كل يوم يمر على احتلال سيناء كان يمضى علينا كألف عام ، واختلطت الرؤى فى ناظرى وعقلى ،فتذكرت أن عصر المماليك والعثمانيين المظلم قد جثم على صدر مصر وكثير من البلدان العربية أكثر من أربعة قرون ، على حين كانت أوربا قد تخطت عصر الظلمات فى القرون الوسطى ، وبلغت بعد ذلك أوج انتصارها وازدهار حضارتها التى مازالت تظل العالم حتى اليوم ٠ ومن قبـل المماليك والعثمانيين البغاة ، هناك فى فجر التاريخ ، استمر الهكسوس الرعاة الغزاة يحتلون مصر أكثر من مائة عام ٠

وهكذا أدركت — مع حقيقة أن الشعب مثل البحار لا تموت ، وأنها تنتصر فى نهاية الصراع — أن التاريخ قد يقبع ساكنا راكدا عشرات أو مئات السنين ، ولكنه لا يلبث أن ينتفض كالمارد ليعدل ويصحح مسيرته ٠ فهو مثل الخط البيـانى الذى يتذبذب فى مساره صعودا وهبوطا ، ولكن المحصلة النهائية له هى الصعود الى الأعلى ٠

وحين اسـتعلى عنق الأفعى ، ومضى على اغتصـاب فلسطين الجريحة خمسون عاما دون أن يقدر على انقاذها الاخوة الأعداء ،

قلت معزيا نفسي : لا تقاس أعمار الشعوب بأعمار الأفراد ، وسوف تشرق الشمس ثانية · ولكن السؤال ظل يراودني متحديا مراوغا : يا أيها المدثر بالشعارات والنظريات !! متى ؟ ونحن في عصر لا يقاس بالسنين وانما بالأيام بل بالساعات والثواني · عصر الصواريخ وسفن الفضاء والأقمار الصناعية · والآخر يركز علمه على وجه القمر ، ونحن في دوامة الذهول والغيبوبة ، وكثير من مفكرينا في أبراجهم العاجية ، وشعراؤنا مكتئبون وقد كانوا رواد المقاومة !! والذين مازالوا يقاومون بشعرهم يتهمون بالعجز عن السباحة في تيار الحداثة !!

ولم يكن عندي اجابة حاسمة على هذه التساؤلات غير شعاع من اليقين يبدو لي خافتا وأحيانا متوهجا في آخر النفق ، وان ظللت مغرقا في التساؤل : أما لهذا الليل من آخر ؟ ولكن شعري كان في واد آخر يستقي من نبع بعيد الأغوار ، وينبثق في منطقة اللا وعي أكثر مما يصدر عما تعلمت ودرست · بل ينبثق من تراكم الوعي التاريخي الذي يظهر كالنبوءة · وهكذا مازلت أصرخ وأحرض على الصمود والنضال دون أن أتنازل عن شروط الجمال الفني والابداع الحق ·· واستمر مبشرا بالأمل ، أبث الوعي بالقدرة على انتزاع الوطن والانسان من براثن الطغيان ·

وصدقت رؤيا الشعر بل حكمة التاريخ ومعجزة الشعوب ، فكان الوعد الحق ·· أكتوبر العظيم ·· ملحمة البطولة والفداء في واحدة من أروع معارك التاريخ المصري والعربي قديما وحديثا ·

الى الملتقى يا نخيل السويس :

عشرين ضابط شرطة كنا ·· والزمان أواخر سنة ١٩٧٣ . أما المكان فهو مدينة السويس والضفة الشرقية لسيناء ·· في

زيارة لاطلال خط بارليف ·· بدت في عيني المدينة الباسلة كأنها مدينة أشباح فقد هجر منها أهلها، ولم يبق منهم الا عدد ضئيل·· منهم أطفال في عمر الورود كانوا يلعبون على ظهر دبابتين غنمهما أبناء مصر المقاتلون · أما المشهد الثانى الذى سوف يظل كامنا فى قلبى وعينى فهو النخيل الذى مات واقفا وقد احترقت رؤوسه بعد أن صب عليها العدو نيران مدافعه ، والمسجد الذى تهدم والكنيسة التى لم تعد تقام فيها الصلوات بعد تدميرها ·

عبرنا قناة السويس – وكم كان مشهد مياهها مهيبا – الى حطام حصن (عيون موسى) أحد المواقع المنيعة بخط بارليف · هناك رأيت ما يعجز القلم عن وصفه ·· تجليات النصر العظيم الذى حققه المصريون بروحهم الأسطورية قبل أيديهم التى تحمل أدوات الدمار للصوص الشعوب وسفاكى دماء الأبرياء ·· انسابت من قلبى على شفتى أبيات من الشعر اكتملت قصيدة فى تلك الليلة التى لا تنسى ·· بعد أن عدنا الى مقر عملنا فى العاصمة · وانثالت الذكريات القريبة · فما ان مضت عدة أيام حتى وجدت بين يدى – وأنا لا أكاد أصدق ديوانا كاملا من وحى ٦ أكتوبر أطلقت عليه اسم احدى القصائد وهو (حبنا أقوى من الموت) · ولكن القصيدة الدرامية الأولى التى استهللته بها هى الأثيرة عندى وهى (الى الملتقى يا نخيل السويس) · كان خطابى الى النخيل المحترق الشامخ مثل صروح الفراعنة ·· الى قلعة الأبطال الفدائيين ·· الى مصر ·· الى حبيبتى ·· الى أصغر طفل فى قريتى ·· الى روح أكتوبر التى أتمنى ألا تغادر أيامنا ولياليناا طوال العام · وألا تغدو مجرد شعار أو ذكرى عابرة ·

قدمت لديوانى بهذه الكلمات (الى التى علمتنى أن الحب عطاء يسع العالم كله · والذين علمونى أن الحرب دفاعا عن الحب شرف للانسان ومنار للغد) · فقد كانت رفيقة العمر تستزيدنى

كلما فرغت من ابداع نص شعرى وهى تقول : (اكتب ٠٠ اكتب ٠٠ لا تتوقف) ٠ وحين أهديت اليها ما كتبت كنت أهدى فى شخصها ذوب قلبى الى حبيبتى ٠٠ الى مصر ٠٠ والى كل ذرة من ترابها وكل نجمة فى سمائها وكل خفقة عصفور على أجران قراها فى الصعيد وفى الدلتا وفى الواحات وقريبا فى أرض الفيروز ٠٠ وتدفقت كأمطار الربيع ذكريات أكتوبر :

على الجسر يا أخت ٠٠ كان اللقاء

دعاء يشق العواصف ٠٠ برقا ٠٠ صلاه

وتكبيرة لم تزل للجنود

ومحرابنا تحت شمس الضحى كل هذا الفضاء

وهذى الفـــلاه

يموج بها الصمت ٠٠ تسكنها كائنات

مجنحة منشدات حرار التراتيل

تعزف لحن الخلاص

وترنو الى مهج فى الرمال

ظماء الى نفحة البرتقال

سجينا بغزة ٠٠ تحلم بالقدس ٠٠ والشهداء

على وقع أمطارنا قادمين وقصف الرصاص

وكنت بلا جسد تعبرين

كأنك عطر لريحانة

خلف هذى التلال خفية

ولكن همسك يحمل نبرة شجو دفين
ورعشة أشرعة النيل عند المساء
واطفالنا فى القرى فى ليالى الشتاء
لانك عذبت يا اخت
كانت بقايا السكاكين مغروسة بين نهديك
والشوك كلل رأسك هذا الوديع
لانك أقسمت الا دموع
تلوث أرض ضحاياك ·· الا رجوع
هبطت الينا بلا جسد تعبرين
وكنت نخيل السويس الذى احرقوه
وشرفتها غاب عنها القمر
وكنت نخيل السويس الذى احرقوه
وشرفتها غاب عنها القمر
وصوح زهر البنفسج والياسمين
وما قتلوك وما قتلوه
فمازلت فى السحب لا تنحنين
ولا يعرف الحزن عينيك لا تطرقين
ومازال وجهك احلى جبين

***

هنا فانظرى ذكريات الذين أقاموا الصواريخ

غابا من الموت حول ربيع المدائن

وساروا على الدم والنار ثم تراموا الى جنــة من صهير الحديد ولفح المداخن

هنا ذكريات الصبا قاتل الليل

ثم استراح قريرا وراء حروف كتاب

هنا ذكريات الألى لم يعودوا لتسرى من دمهم فى السويس بحار سرور جديدة

وينبت من لحمهم قمح سيناء كرم العريش

وتصدح أحلى الأغاريد من شرفات بعيدة

هنا فانظرى ذكريات جنود المقوقس عادوا

ظهيرا لفرسان عمرو على الروم

يقتحمون الثغور السليبة

رياحا تمزق اعتى الجسور

وتنثر احنى البذور

على كل ارض حرام خضيبه

وهذى الهياكل سودا تصفر فيها رياح المنون

وينقب أحشاءها السائمون

تعالى خلى الآن تذكار لقيا شتيتين

رؤيا خلاص

ترامت كصيد طريح تمدد فى الشاطئين
ومن قدم كان قتل التماسيح فى النيل
رزق النسور وعيد القصاص
ولا تفزعى ·· كل هذى النعوش
طوائركم صبغت بالدماء وجوه اللواتى
عشقت على غير لقيا ·· نساء العريش
وها هى فى الطين مصلوبة
مثل صلبان طاغية والضحية « أحمد »
مازال يصرخ بين تلاميذ بحر البقر
كأن مزامير داود تحتقر الأبجدية
وتلعن سر الطفولة والأبدية
كأن الكتاب المقدس رجس الشياطين
طير أبابيل تحصب هام البشر
وسيف تسلطه فوق أعناقنا نقمة وثنية
كأن مياه السويس عليها من الصفو روح الاله
وأنت بلا جسد فى دمى تعبرين القناه
وداعا الى الملتقى يا نخيل السويس
يموت الزمان الكئيب
ويبقى المكان الحبيب
وداعا على موعد تحت شمس الخليج
ومنزلنا كل هذى المروج
ومحرابنا كل هذا الفضاء
وداعا ·· الى الملتقى يا سماء

* * *

الفهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٢٣٢/٢٠٠٠
ISBN — 977 — 01 — 7084 — 4